818
D339bA
C.1

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

N. MAKHOUL
BINDERY
2 0 JUL 1968
HARISSA TEL. 72

818
D339bA
C.1

رواية البوليس السري

مقدمة المعرّب

قرأت هذه القصة في اللغة الانكليزية واسمها " Bella-Demonia " اي " الشيطانة الظريفة " للكاتبة الشهيرة سلينا دولارو فاعجبني حسنُ اسلوبها وغرابة حوادثها وقد مُثِّلت وقائعها في بطرس برج وفينا ولندن والبلقان وغيرها من مدن اوربا قبيل شبوب الحرب الاخيرة بين روسيا وتركيا والغرض من وضعها اظهار دهاء البوليس السري وقوة النيهيلست في روسيا على وجهٍ فكاهي تاريخيّ يروق القارئ ويشوق المطالع . وقد عرّبتها راجياً ان تكون خير تسليةٍ لقراء المقتطف في اوقات الفراغ

اسعد داغر

الفصل الاول

جون فاين

— ولكن لا يخفى على جنابك ان الاجرة ثلثة ريالات

— اذهب عني سريعاً

— ولكن —

— ماذا ألا تزال تعوي دونك هذه الاجرة

ثم دوى الشارع بصراخٍ شديد أصعدهُ سائق مركبةٍ من جراء ضربةٍ ابتدرهُ بها على وجههِ رجلٌ كان راكباً معهُ وقد نزل في رأس شارع نيوسكي

وكان هذا السائق من عامة الروس المدعوين فلاحين (موجك) وعليهِ جبةٌ بالية من الفرو فوقف مستنداً الى جانب مركبتهِ وقد لاح لعين الناظر فرقٌ عظيم بينهُ وبين ضاربهِ الذي كان منتصباً امام مصباحٍ فبدا على نورهِ قائماً في زيٍّ عسكري ومرتدياً حلةً ضافية من جوخٍ فاتمٍ يغشاها فروٌ فاخرٌ جميل ولابساً قبعةً وقفازين من نسيج الحلة عينهِ ومحتذياً حذاءً دلَّت بساطة صنعهِ ومتانتهُ على انهُ من المصنوعات الانكليزية . وكان شعر رأسهِ المخفى تحت

قبعتهِ اسود اللون وكذا شعر شاربيهِ الاثيث الخشن المُسبل من طرفيهِ على انتظامٍ تام يُواري تحتهُ فمًا كالحًا يبسم عن منتهى الشراسة والقساوة

وقف هذا الرجل ينظر الى ذلك السائق المتألم ويدهُ الواحدة مرسلة على فخذهِ والأُخرى قابضة خيزرانة لا تنفكُّ تنهزُّ بقوة الضربة التي نابت هذا الفلاح المسكين

اما ضربُ الراكب للسائق فلم يكن امرًا ذا بال ولا شيئًا يستحقُّ الملاحظة ولا سيما في وقت حدوث هذه الحادثة . وكان في بركود الهواء في ذلك الزمهرير القارس يردد شكوى ذلك المضروب البائس ويرجّع صدى مرارة صراخهِ . على انهُ اتفق لذلك الصوت ان بلغ مسمع رجلٍ كان قائمًا في بوابةٍ على ذلك الشارع فخرج على الاثر وخفَّ الى حيث كان السائق واقفًا يتظلم من ضاربهِ الجائر العاتي وخاطبهُ بلسان الآمر الناهي : —

— ما شأنك ايها الرجل هلمَّ اخبرني . فالناس لا يُجلَدون عبثًا في شوارع بطرس برج .

فلما سمع الضارب كلامهُ عبس في وجههِ واشاح عنهُ ممتعضًا من فضولهِ . فتأثر السائل من استيائهِ لكنهُ ما لبث ان حيَّاهُ التحية العسكرية وخاطبهُ بلحنٍ شفَّ عن مزيد تعجبهِ واستغرابهِ :

— من ارى ؟ جوسبودار فاين ؟ أرانا في غاية المحافظة على الوقت حتى اننا لم نخلف شيئًا من الميعاد

اما السائق فبعد ما حملق في وجهِ هذا المتكلم وثب باسرع من وميض البرق الى مقعدهِ في المركبة واسرَّ الى نفسهِ بصوتٍ متقطع : —

— ديمتري كيراتيف ! رئيس البوليس السري ! يا قديسة كاترينا ! الهرب الهرب !

وقبلما تمكن ذانك الرجلان من النظر اليهِ كان قد اعمل السوط في ظهر جوادهِ وقام يُمعن في الركض وينهب بالمركبة الارض وفي اقل من بضع ثوانٍ توارى عن العيان . فقال فاين : —

— نعم انَّ ما اسعى في الحصول عليهِ امرٌ خطير يتطلَّبُ مني افتداء الوقت والحضور في الميعاد ومنك اسراعًا مع تأهُّب واستعداد . ولستَ في حاجةٍ الى الاهتمام بهذا السائق فقد مضى وقضي الامر بعدما تعلَّم درسًا مفيدًا لا ينساهُ ابد الدهر . حاول الخبيث ان يأخذ الاجرة مضاعفةً وقد خفيت عليهِ معرفتي فاخطأ مبهمهُ الغرض . وعُوِّض منها احسن عوض

قال هذا واوغل في ضحكٍ ناشفٍ فصل شفتيهِ احداهما عن الاخرى واسفر عن فكَّين علقت بهما اسنانٌ دقيقة مشحوذة على مسنِّ القسوة . ثم سألهُ كيراتيف : —

— وهل جئتَ بالكتاب ؟

— نعم هذا هو

واخرج من قمطرهِ قرطاساً مطوياً وقال : —

— حسبنا هذا فهو فوق ما نطلب . انهُ كتاب من الكسس دورسكي زعيم النيهيلست الى البرنس لاديسلاز غالتزن ومنهُ يتضح لك ما هما عليهِ هذان الرجلان من التحالف الوثيق العرى والصداقة الموطدة الاركان

فاجابهُ رئيس البوليس : —

— نعم هذا اكثر من حاجتنا ثم اشعل مصباحاً اخرجهُ من جيبهِ واخذ يطالع الكتاب على نورهِ بمزيد الامعان . ولما فرغ من تلاوتهِ اطفأ المصباح وطوى الكتاب ووضعهُ في قمطرهِ وقال لفاين : —

— كيف سمح البرنس لاديسلاز بوقوع هذا الكتاب في ايدينا ؟

— استودعهُ شقيقتهُ البرنسس كاريتا غالتزن ومنها تهيأ لي الحصول عليهِ

فرمى رئيس البوليس بنظرهِ الحادّ السريع وجه فاين الذي ابدى التجاهل التامّ من مرادهِ ورماهُ بنظرةٍ مثلها ثم سألهُ بلهجةٍ دلّت على ارتيابهِ :—

— متى تروم ان يُقبض عليهِ ؟

— على الفور على الفور . ينبغي ان لا تمرّ ساعة واحدة حتى يكون مودعاً قلعة مار بطرس وبولس :

— أفي سرعةٍ كهذه ؟

— نعم كي لا يعود يتمكّن من تمثيل " دورٍ " آخر مثل الذي بعثهُ الطيش والرعونة على تمثيلهِ هذا المساء في النادي

— ولكن يجب ان لا يخرج البتة من القلعة وينبغي ان لا يُحاكَم هناك

فاجابهُ رئيس البوليس باسماً : —

— لا تخف . فانهُ قلما يحاكم المسجونون الذين يزجّون في غيابة قلعة القديسين بطرس وبولس حيث رفعت الرطوبة قبابها . وضربت العفونة اطنابها . ورسخت اقدام الهواء الفاسد رسوخ النقش في الحجر . وخيم الموت بظلالهِ فلم يغادر لعين حياة المسجونين من اثر . ولستُ محتاجاً ان اذكرك نعومة جسم البرنس وعدم استطاعتهِ الحياة في ذلك المكان المنقطعة عنهُ منافذ الحياة . واظنك لا تبخل علينا بالمساعدة عندما تحضرهُ الوفاة . لان الاحتفال بدفن مسجين كهذا مما يرتاح كل غريب مثلك اليهِ . ويود التفرّج عليهِ

فسألهُ فاين متظاهراً بعدم الانتباه الى كلامهِ السابق : —

وهل انتَ واثقٌ من امكان القبض عليهِ في الحال ؟

فاعاد عليهِ جوابهُ المتقدم : —

— لا تمرُّ ساعة حتى يكون مودعاً القلعة بحرص

— اين هو الآن فقد خرج من النادي مسرعاً جداً

— عند امرأتهِ

— ماذا تقول

— عند امرأتهِ لانهُ قد تزوج منذ اكثر من سنةٍ بسريةٍ

— ما سمعت بهذا قط

— لم يسمع بهِ احدٌ غير ديمتري كيراتيف وشقيقة البرنس الاميرة كاريتا

— ما شاء الله

— واذا شئت تغيير فكرك فلك نصف ساعة من الوقت وهذا كافٍ للافتكار

— تغيير فكري ؟ لستُ بعادل عن عزمي الى الابد ولا شيءٌ افضل من الانتقام فالثأر الثأر وقد سنحت فرصتهُ

وفيما هو عازم على الانطلاق قبض رئيس البوليس على ذراعهِ وخاطبهُ باهتمام قائلاً اعلم ان انتقاماً كهذا سوف يكون هائلاً الى الغاية . وهذه الضربة لا بدَّ انها تنتاب معهُ شقيقتهُ وقرينتهُ

— حسن في احسن

— ويرجح انها تقضي على هاتين المرأتين

فلم يجبهُ فاين بشيء بل عضَّ على طرف سيكارهِ وقدح عود كبريت ليشعلهُ بهِ فلما ادنى النار من وجههِ لاحت بنورها عيناهُ المتقدتان بشعلة المكر وهما محدقتان الى رئيس البوليس وبعدما تبسم تبسماً ذهب بانتظام وجههِ وشرح متن الشراسة التي انطوى عليها صدرهُ رمى بعود الكبريت الى الارض واعرض عن رفيقهِ بلا كلام منسلاً تحت اطباق الظلام . فقال كيراتيف بنفسهِ وهو يشيّع فاين بنظرهِ : —

— يا لهُ من شيطانٍ ليطانٍ على انهُ مهما يكن من خبثهِ فهو عضو ثمين في جسم فرقتنا الثالثة

ثم اهاب بسائق مركبة كان يخطر بمركبتهِ امامهُ فوثب اليها وطفقت تجري بهِ الى مركز رئيس البوليس العام

الفصل الثاني

الزوجان

لا يعزب عن ذهن المطالع ان اجمل المساكن وابهى المنازل في بطرس برج هو كما في غيرها من امهات مدن العالم قائم على نهرٍ . فكما تظهر قصور اللوفر على السين في باريس مقابل اخصاص شارع اللاتين — وكما تبدو صروح مجلس النواب وقصر سمرست على التيمس في لندن تجاه اكواخ لونشور هكذا تلوح قلعة الشتاء على نهر نيفا في بطرس برج مقابل منازل الفلاحين (الموجك) الحقيرة

ففي هذه المنازل الوضيعة تولدت النيهيلستية وترعرعت وتفشت وعليها تُرسل الحكومة العيون والارصاد بواسطة البوليس السري وفيها يجد من يروم المواراة عن الانظار مخابئ لا يراها بين الغابات والادغال

فاذا سرت في احد شوارعها الضيقة انتهى بك الى بابٍ واطيءٍ يفتح الى مدخلٍ حرج يؤدي الى كوخٍ اشبه بزريبةٍ وهناك مهما اطلت القرع على بابهِ لا تسمع صوت مجيب ولا تؤانس شيئاً من العلامات الدالة على كونهِ مأهولاً الاَّ اذا مسته بعصاً او حجرٍ فانك في الحال تجاب من الداخل بكلمة تسرُّ اليك فإن كنت مطلعاً على كنه الاصطلاح الموضوع لهذه الغاية اجبت المتكلم بكلمة اخرى لا يلبث الباب عندها ان ينفتح

ولا تطأ رجلاك داخلهُ حتى تشعر تحت قدميك بالفرو المفروشة بهِ الارض ثم تجتاز المدخل الى غرفةٍ مفروشة بجلودٍ من سيبيريا وجدرانها مغشاة بمنسوجات حريرية من اصفهان ومطرَّزات من دمشق وباقي رياشها من اثمن العاديات والآثار الهندية والصينية وابدع المصنوعات الاوربية بين مطرزٍ ومرصَّعٍ وموشى مما يطول شرحهُ ويعزُّ استيفاؤهُ

وفي تلك الغرفة امرأة جالسة على متكأٍ وعلى محياها لوائح الانتظار . وهي البرنسس نادين غالتزن التي كانت قبلاً امة البرنسس كارينا والآن اصبحت زوجة البرنس لاديسلاز . ولا ريب في ان هذا الامير الروسي قد اتى ما يستوجب اللوم وسقوط الشأن باقترانهِ اقتراناً غير شرعي بمن هي دونهُ في الرتبة والمقام ولكن كل من ينظر الى زوجتهِ متكئة على سريرها يجد آثار الرفعة على جبينها ودم المكانة ساريًا في عروقها ويرى انها اهلٌ لان تقاسم البرنس غالتزن شرف لقبهِ ومجد أسرتهِ

وبينما هي تنتظر قدوم زوجها بصبرٍ ذاهبٍ وجزعٍ غالبٍ طفقت افكارها تجول في جوّ

السنتين الغابرتين فخيل لها انها عادت الى نعيمها الخالي وخفضة عيشها السابقة وعادت ايام الصفاء تفترُّ عن ثغورٍ بالمسرات بواسم . وجوُّ الهناء مجلوٌّ برياحٍ بالافراح نواسم والسعادة محدقة بها جاعلة ايامها كلها اعيادًا ومواسم . ايام كانت قائمة بخدمة الامبرة كاريتا وهي عندها كاختٍ شقيقة لا كأمة رقيقة

ثم لاح لعينيها البرنس لاديسلاز راجعًا من المدرسة الكلية فتنّى غض الاهاب في ريعان الصبا وعنفوان الشباب . واسترجعت لها ذاكرتها صوت استيقاظها لصوتٍ جديد كان يناجيها من نحوهِ ومثلت لعينيها صورة تدرجها في الاقتناع بانهُ كان قمر زمان احلامها وقبلة وجدها وهيامها . واخطرت على قلبها ذكر اول وقت وقعت عيناها على عينيهِ . وقاسمتهُ بالنظر شرح غرام يعجزُ البليغ وصفهُ ولا يقوى الكلام عليهِ

وتذكّرت نجاحها بعد ذلك في عقد الخطبة من غير علم ابي الامير لاديسلاز وما ألمَّ بها من الكدر حين بلغها انهُ حان وقت انطلاق خطيبها لمباشرة خدمتهِ في فرقة حرس القيصر وكيف انهُ اقنع قسيس كاهن القصر اذ ذاك بان يعقد قرانهما سرًّا ثم هربا الى بطرس برج حيث قضيا السنة الاولى متجاذبين اطراف السرور والهناء وآخذين باسباب الرغد والصفاء . ولعلَّ ايمن يوم عندها من تلك السنة السعيدة كان يوم زارتها الامبرة كاريتا في مخبإها واعتنقتها داعية اياها باحلى اسم — يا اختي . اما خفاء امر اقترانهما فكان مهمًّا جدًّا لان الامير لاديسلاز غالتزن الفرع الوحيد لدوحةٍ عريقة بالمجد والشرف طائرة الصيت بالوجاهة ورفعة الشأن في اطراف المملكة كان قد اتُّهم في عهد طيشهِ وهو في المدرسة بالنزوع الى المبادىء الحرَّة وكان في عزم القيصر ان يزوّجهُ ابنة اقدم بيوت حزب المحافظين في روسيا وهذا كان الباعث على وجودهِ في الحرس القيصري واخفاء خبر اقترانهِ الذي لم يكن احدٌ عالمًا بهِ سوى اختهِ وشخص آخر هو ديمتري كيراتيف رئيس الفرقة الثالثة — (البوليس السري) — التي تجدها في روسيا الى اليوم هولاً على البلاد ورعبًا في قلوب العباد . على ان ديمتري كيراتيف كان مديونًا بجميل عظيم لبيت غالتزن فكان شديد الحرص على هذا السر الخطير حتى حدث ما جعلهُ يعدُّ كتمانهُ ذنبًا لا يغتفر . وجريمةً ضد وليّ نعمتهِ القيصر

قلنا ان نادين كانت جالسة في احدى غرف مخبإها وهي قلقة لغياب زوجها وريحانها وموجسةً خوفًا من ان تُلِمَّ بهِ مصيبةٌ لم تكن في حسبانها . فبينما هي في هذه الحالة سمعت وقع خطواتهِ قادمًا في الدار وما لبث ان دخل قائلاً : —

— هانذا يا حبيبتي نادين

ثم عطف عليها مطمئناً ببرد تقبيلهِ لها نار هواجسها وجالياً برقة حديثهِ صدأ بلبالها فزال خوفها وسكن روعها وامنت شرَّ مغتالٍ يفاجئُ حبيبها في غيابهِ عنها اذ رأتهُ جالساً بجانبها في راحةٍ وامان لا خوف عليهما ولا هما يحزنان . فرفعت نظرها اليهِ وقالت :

— اراني في غنى عن وصف خوفي عليك فاعلم ان كل ساعة لا اراك فيها انقلب على مجامر الاضطراب خوفاً ان يوقعوا بك ولعلهم يجدون في عصيانك اوامر القيصر سبباً كافياً للقبض عليك . فاحترس — آه رحماك احترس يا حبيبي والاَّ فاقلُّ شيءٍ يصيبك يجرعني غصص الموت معك ان لم اقل قبلك

فاجابها : تشجعي يا حبيبتي تشجعي اذ ليس ما يوجب الحذر ولا ارى من خوفٍ علينا ولا خطر ما داموا غير قادرين ان يقفوا لنا على اثر . ولستُ بجاهل شقاء حالك ان تمكنوا من الاطلاع على حقيقة امرنا وهتكوا حجاب سرّنا ولكن دعينا من هذا الحديث الذي لا يفيد واعلمي انهُ سيطرقنا عما قليل زائرٌ جديد

زائر ؟

قالت هذا وقد انقدت عيناها بنار الخوف والوجل

— نعم فلطالما سمعتني اذكر امامك الكس الكسندروفتش

— مرادك الكس دورسكي النيهيلستي ؟

— نعم هو هو خدني الصفيُّ القديم ورفيق عهد المدرسة الوفيّ الحميم وهو آتٍ هذه الليلة الى بطرس برج ولكن سرًّا حتى عن العصبة التي هو مقدامها وزعيمها

— آه يالاديسلاز ما اقل دربتك ودرايتك !

— لستُ في شيءٍ مما تدعين لاني على يقين تام انهُ ليس في مجيئهِ اقلُّ داعٍ الى الخوف والارتياب ومن المستحيل ان ينتاب الكس دورسكي مكروه يروعنا فكوني براحة بال من هذا القبيل

وفيما هو يتكلم دخل خادمها الشيخ الموكولة اليهِ وحده حراسة الاميرة نادين وقال للامير :

— هوذا رجل طاعنٌ في السن يعرف شعار الدخول ويروم ان يرى سموك

— ليَّ بهِ

وبعد نحو دقيقة رُفعت الستائر فاجتاز من ورائها الى الداخل شيخ يحمل على ظهرهِ خرجاً وبعد دخولهِ وخروج الخادم قام منتصباً وخلع عنهُ اسمال التنكر ونزع لحيتهُ العارية ووقف امام الاميرين بهيئة جبار عنيد يفل عزمهُ الحديد

— الكس الكسندروفتش !

— لاديسلاز لاديسلافتش !

ثم تعانقا عناق اهل الاشواق وتشاكيا ألم النوى والفراق

الفصل الثالث

القاء القبض

وبعد ما فرغا من مطارحة السلام التفت البرنس لاديسلاز الى زوجتهِ وقال لها وهو لا يزال آخذاً بيد صديقهِ : —

— هوذا يا نادين صديقي القديم الكس الكسندروفتش دورسكي

اما هي فبعد ما تغلَّبت على روعها رفعت نظرها الى وجه الزائر وقالت : —

— سمعت عنك كثيرًا يا الكس الكسندروفتش من قريني لاديسلاز فاهلاً بك خير قادم الى مخبإنا هذا

فاجابها : —

— لا ريب في انكِ خفتِ ايتها الاميرة من زيارتي هذه ولكن صدقيني ان خوفك في غير محلهِ ولستُ ما حييتُ بفاعل امرًا يعود على قرينك بمكروهٍ ولاجل هذه الغاية ترينني زرتكما هذه الليلة متنكرًا

— ارجو ان يكون الامر كما ذكرت

ثم سأله لاديسلاز : —

كيف الاحوال

— على غاية ما يرام هنا وفي الخارج . فان لنا اصدقاء كثيرين في الدوائر العليا حتى في فرقة الحرس القيصري كما في كلٍ من فرق البوليس الثلث . وبعد بضع سنين — ولعلهُ بعد اشهرٍ قليلة تصبحُ روسيا حرةً مختارةً . وما فعلهُ لاجلنا اسكندر الثاني سوف يفعلهُ ايضاً ويزيد عليهِ اصلاحاتٍ تمزق من عنق روسيا اغلال الاستعباد والاستبداد وتنيلها غاية المشتهى ونهاية المراد . والاَّ —

وهنا انقطع عن الكلام انقطاعاً ادرك لاديسلاز معناهُ لكنَّ زوجتهُ التفتت اليهِ الفتاة الخوف فقال لها : —

لا تخافي يا عزيزتي فلست بمؤتمرٍ ولا ساعٍ بكيدة وما انا والكيد سوى صديقين حميمين . لا تظني اني احد قوّادهِ فوحقّ القديسة كاترينا لستُ بمقدمٍ على اقلّ شيءٍ يُعرّض حياتي للخطر . ولذا تريني مسالمًا الجميع من عظمة القيصر الى اصغر الناس ولستُ بعد في شيءٍ من المبادئ النيهيلستية بل قد اقلعتُ عن هذه الاميال وغادرتها في المدرسة الكلية . واذا كانت تلك الجمعية السرية التي كنت قبلاً احد اعضائها لا تنفكُّ عاملةً على تنفيذ مبادئها فانا براءٌ من تبعة ذلك كلهِ

ثم ختم كلامهُ بقهقهةٍ واتكأ بجانب زوجتهِ فقال دورسكي : —

— لا ريب في ذلك وهو حسبنا فلا حاجة الى الزيادة . وانظرا فقد جئتكما بهدية

قال هذا واخرج من جيبهِ غلافًا من جلدٍ وفتحهُ فاذا فيهِ رسمهُ ضمن إطار (برواز) مرصّع بالاوبال (حجر كريم) فقدمهُ الى الاميرة وقال : —

— هذه مني هدية قرانك السعيد فتفضّلي بقبولها ولعلها تذكركِ من هو مستعدٌّ على الدوام ان يبذل حريتهُ بل يضحي حياتهُ اذا مست الضرورة في سبيل الذود عن قرينك

— اشكر لك من صميم فؤادي هذه الهدية التي اقدرها قدرها ولكن قل لي بربك لماذا جعلتهم يرصّعون اطار الرسم بهذا النوع من الحجارة الكريمة . اني اتشاءم بهِ كثيرًا ولذا اخشى الآن ان تعرونا نكبة او نصاب باذًى مفاجئ . اقول هذا وارجو ان تصفح عمّا تراهُ فيَّ من الاستسلام الى الخرافات والاعتقاد بصحة مزاعم العامّة

فقال زوجها : — خلّي عنك الباطل فوحقّ جميع القديسين ان هذا الرسم جميل الى الغاية وسيذخر عندنا كاثمن كنز

وبينما كان الثلثة ينظرون الى الرسم معجبين بما في إطارهِ من الاتقان والاحكام اعترض سكوتهم ثلث قرعات عنيفة على الباب الخارجي وصوت صارخٍ في هدوء الليل : —

— افتح باسم جلالة القيصر :

فغشيتهم صفرة الوجل واخذوا ينظرون بعضهم الى بعض . ثم خفَّ لاديسلاز الى وضع الرسم في جيبهِ وصاح دورسكي : —

— وحق السماء لقد برح الخفاء . ولكن لا يمكن ذلك . فحضوري في هذا المكان لم تحلم بهِ نفس انسان ولا خطر على بال انس ولا جان . لا بأس . خبئني . أخفني عن النظر

فاسرع لاديسلاز الى إطار احدى الصور الكبيرة المعلّقة وادار لولبًا فيهِ فانفتحت الصورة عن فراغٍ واسع وراءها في الحائط واسرَّ الى دورسكي قائلاً : —

— هنا ! الى هنا ! بالعجل ! لا تبدِ حراكاً

وما ابطأ دورسكي ان جمع اليهِ خرجهُ وثياب التنكر التي دخل فيها وانسل الى مخبإهِ وقال لصديقهِ : —

— اياك ان تنبه الافكار الى وجودي هنا بكلمةٍ او نظرةٍ فاني لا أُؤخذ من هذا المكان حيًّا

ثم اغلق لادبسلاز الصورة ورجع الى متكاهِ بجانب امرأتهِ التي أُغمي عليها من شدة الخوف واذ ذاك أُعيد القرع على الباب الخارجي وتكرَّر الطلب : —

— افتح باسم جلالة القيصر :

فاجاب الامير بصوتٍ عالٍ يكفي لاسماع من هم خارجًا : —

— افتح الباب : فليس من باعث يدعو سكان هذا البيت الى الخوف من حرس ابينا القيصر

ثم ارتفع صوت وقع الخطى وصليل الاسلحة في الرواق ودخل ديمتري كيراتيف فسأَلهُ الامير بلهجة العظمة : —

— ما المراد بهذا ؟ انظر كيف اخفت .... سرّيتي حتى كاد يُقضى عليها من شدة الرعب . وما من مأوى عندنا لاهل الشبهات

— ان غرضي مع سموكم !

— معي انا ؟ وما هو ؟

— اني مأمورٌ بالقبض عليك لسبب خيانةٍ ضد اقنوم جلالتهِ المقدَّس

— خيانةٍ ؟ مني انا ؟ وما هي هذه الخيانة ؟

— خيانة صداقة الكسس دورسكي الثائر !

فجرت هذه الكلمات في مسمع الاميرة الداهية فريسة الاغماء نظير مجرَى كهربائيّ نبَّه إدراكها واعاد لها رشادها فصاحت : —

— ليس هو هنا ليس هو هنا !

فاجابها رئيس البوليس : —

— نعم ليس هو عندكم وادارة البوليس مطلعة على حركاتهِ وتعلم اين هو الآن ولكنَّ الامير مشكوٌّ بكتابٍ جاءهُ من دورسكي وهو الآن في ادارة البوليس

فسأَلهُ الامير : —

— كيف امكن —

فاعترضهُ رئيس البوليس : —

— لسنا الآن في معرض التحقيق وعلى سموك ان تتبعني في الحال
اني مستعد لذلك

وهمَّ ان يتبعهُ لولا انهُ خطر ببالهِ رسم دورسكي الذي في جيبهِ فمدَّ يدهُ الى حيث الرسم باسرع من نشب السهم لكنَّ عين رئيس البوليس الحادَّة كانت تتأثر كل حركاتهِ فلما رآهُ يمدُّ يدهُ ظنهُ يحاول اخراج آلة حادَّةٍ يستعين بها على الدفاع عن نفسهِ فهجم عليهِ ونادى الجند الواقف خارجًا فلبَّاهُ اثنان واقضًا على الامير وشدَّاه وثاقهُ ثم دنا رئيس البوليس منهُ ومدَّ يدهُ الى جيبهِ فأخرج الصورة وصاح : —

— ما حاجتنا بعد الى شهود . يكفينا ان الامير حاملٌ رسم ذلك الخائن فهلمَّ بنا

فاجابهُ الامير : —

— دع رجالك يذهبون يا كيراتيف فانَّ لي شيئًا اقولهُ لك

فامرهم كيراتيف بالانصراف ولما خرجوا سأله الامير : —

— الى اين تقضي عليَّ بالذهاب ؟

— الى قلعة شلسبرج

فراع الامير هذا الخبر لكنهُ تغلب على روعهِ فأخفاهُ وقال متجلدًا : —

— يا كيراتيف كلانا يعلم ما وراء الذهاب الى هذه القلعة . وهذه السيدة امرأتي فدعني اكلمها خمس دقائق فقط وما اظنك تبخل عليَّ بهذا الامر واعدك بشرفي اني انتظرك هنا

فاجابهُ رئيس البوليس متأثرًا

— ليكن لك ما طلبت فها انا ذاهب وبعد خمس دقائق اعود

ولما خرج دنا الامير من زوجتهِ وقال لها : —

— نادين حبيبتي نادين انظري . لا بأس مما حدث فانهم لم يقفوا على خبر وجودهِ هنا . وبعد خروجي من هنا ساعديهِ على النجاة واخبريهِ بان القبض عليَّ حدث بدسيسة جون فاين لاني اهنتهُ هذا المساء في النادي . فان اصابني اذًى فقولي لهُ ان ينتقم لي ولكِ واطلبي اختي كاريتا فانها تعتني بك مدة سجني . تشجعي ولا تخافي

واخذ يحاول تعزيتها وقد نسيَ ان الخمس دقائق في مثل هذه الحالة تمرُّ اسرع من ثانية فرفع نظرهُ واذا بكيراتيف واقف بالباب فنهض وخرج معهُ

ولما خرجا الى الشارع صعد بهِ رئيس البوليس الى مركبة كانت تنتظرهُ وامر سائقها فسارت ووراءها فارسان يتبعانها وبعد ساعةٍ بلغت بهما قلعة شلسبرج

الفصل الرابع

زعيم نيهلست

اما الكس دورسكي فبعد ما تحقق ذهاب رئيس البوليس فتح اطار الصورة وخرج ثم دنا من السرير الذي كانت الاميرة مطروحة عليهِ بلا حراكٍ فجثا بجانبهِ وقال لها : —

— اتوسل اليكِ ايتها الاميرة ان تسمعي كلامي فان الليل اخذ يتناهى وصرت مضطرًّا ان اذهب فانهضي وارعيني سمعك

فحاولت الاميرة الجلوس بكل صعوبة ولما وقعت عيناها على عيني ذلك النيهيلستي اشاحت عنهُ مذعورة وصرخت : —

— اليك عني دعني وشأني لا استطيع ان اراك لانك كنت سبب القبض عليهِ

— كلاَّ ايتها الاميرة لم يقبض عليهِ بسببي بل بكيدة كيدت لهُ هذه الليلة . واني أُقسم لكِ بقدس القديسين وبالحرية التي وقفتُ نفسي على الذود عن حرمتها والدفاع عن ذمارها لأثأرنَّ لزوجك ثأرًا ترتعد لهولهِ فرائص الانس والجان وانتقمنَّ لهُ انتقامًا لم تسمع بهِ اذنٌ ولا خطر على بال انسان

— نعم نعم فقد اوصاني ان أُخبرك بان الذي نصب لهُ هذه المكيدة رجل انكليزي يدعى جون فاين فاحلف لي نشدتك الله احلف لي انك اذا قتلوا لاديسلاز تطالب بدمهِ

— اقسم لكِ اني اقتطع للانتقام منهُ الى آخر نسمةٍ من حياتي

— شكرًا لك — شكرًا . ولكن آه أيُّ المٍ —

ثم ارتج عليها فوارت وجهها بين يديها وعادت الى ما كانت عليهِ قبلما اقترب الكس اليها فوقف يفكر في امرها وقلبهُ يكاد ينفطر حزنًا على شقاء حالها . ثم حدثتهُ نفسهُ بوجوب السعي في انقاذ صديقهِ ان ابقوهُ حيًّا الى الصباح فسألها : —

— قولي لي اما من صديقةٍ لكِ فادعوها اليكِ ؟

فاجابتهُ بانفاسٍ يقطعها التنهد والانين : —

— بلى كاريتا

فنهض ولبس ثياب التنكر وخرج يهيم تحت ذيول الليل

وبعد ساعةٍ أُوقظ حارس قصر غالتزن بقرعٍ على الباب فخاطب الطارق بلسان الغيظ والحنق : —

— صعقتك الصاعقة . فماذا تريد في مثل هذا الوقت ؟

— باسم جلالة القيصر وامر البوليس السري ارفع كتاباً الى سمو الاميرة كاريتا الكسدروفنا.
فهرول الحارس الى فتح الباب واذا بشيخ يحمل خرجاً وقف امامهُ وقال لهُ : —
— سلم هذه الرسالة الى احدى اماء الاميرة في الحال. ينبغي ان تبلغها على الفور أفهمت؟
فاجابهُ الحارس صاغراً وقد ظنهُ احد البوليس السري متنكراً : —
— امرك يا صاحب السمو
وبعد نحو ساعة قامت مركبة الاميرة كاريتا غالتزن تنهب الارض عادية بها الى جهة نهر نينا وكان ذلك قبل طلوع النهار بثلث ساعات . اما الشيخ فبعدما ادّى الرسالة قفل راجعاً وعطف نحو ساحة القديسة كاترينا حيث كانت اربع مركبات واقفة تنتظر ركّاباً ولمّا اجتاز سائقيها الذين كانوا مجتمعين عند باب للتدخين وضع احدى يديهِ على فخذهِ وادلى اصابعها ورفع الثانية الى أُذنهِ وفاه بالتحية المعتادة فاجابهُ احدهم بما معناهُ "جيد" وظلّ الشيخ سائراً في طريقهِ واسرع السائق الذي اجابهُ على تحيتهِ الى مركبتهِ وجرى بها يتأثرهُ فاجتازهُ عند مصباحٍ فأعاد عليهِ الشيخ الاشارة التي ابداها لهُ اولاً فدنا منهُ بمركبتهِ قليلاً فقال لهُ الشيخ : —
— ما اجملها ليلةً
— ما انقى الهواء
— ان الهواء روسيّ
— يجب ان يتنشقهُ الناس
ثم نطق الشيخ بهذه الكلمة "خورسكو" فزاد السائق اقتراباً منهُ حتى التصق بهِ فصعد الشيخ الى المركبة وسارت بهِ حتى بلغت منعطفاً في الطريق فاشار الشيخ الى السائق بالوقوف فامتثل وخرج الشيخ من المركبة ودنا من السائق واراهُ اطاراً صغيراً من ذهب منقوشاً عليهِ صليب احمر فهمس السائق : —
— يا مار نيقولا ! هذا الرئيس !
ثم انحنى امامهُ بمزيد الاكرام وخاطبهُ بكل احترام : —
— بماذا يأمر مولاي ؟
— ان احد سائقي مركبات الاجرة ذهب في هذا الليل بأسير الى احدى القلاع فعليك ان تأتي بهِ الساعة العاشرة صباحاً الى حيث أُعين لك في هذه الورقة
ثم رقم لهُ على قطعة ورق بضع كلمات تمكن السائق من تلاوتها جيداً على نور المصباح ومزّقها على الاثر وقال : —

— سآتي بهِ الى مولاي في المكان المعهود والوقت المحدود

— حسن . سلام وحرية

— امين . حرية وسلام

وفي اليوم التالي جلس الكسس دورسكي في الوقت المعين امام موقدة في غرفة من احد احياء بطرس برج القديمة وهو مضطرب البال مشتت الافكار ولما صارت الساعة العاشرة دخل السائق الذي لقيهُ امس في شارع نيوسكي يصحبهُ سائقٌ آخر وهو الذي كان موضوع كلامنا في اول هذه القصة . وبعد ما ألقى عليهِ دورسكي نظرة التفحص والانتقاد وعرض عليهِ بعض الرموز والاشارات وتحقق انهُ من اتباعهِ قال : —

— هل استخدمك البوليس امس ؟

— نعم يا صاحب السمو

— الى اية قلعة سرت بالاسير ؟

— الى قلعة شلسبرج

— هل تعلم شيئاً من امر القبض عليهِ ؟

— في اول المساء استأجرني رجل غريب فسرت بهِ الى اول شارع نيوسكي وهناك طلبت الاجرة فبادرني بضربةٍ من عصاهُ وهذا اثرها . ثم لقيهُ كيراتيف وبعد افتراقهما دعاني رئيس البوليس فذهبت بهِ الى مركز الادارة ثم الى نهر نيفا ثم سرت بالامير الى القلعة . آه مهلاً ايها الكلب الغريب فسوف انتقم منك !

— هل دعا كيراتيف ذلك الغريب باسمهِ ؟

— نعم يا صاحب السمو وهو — وهو - فان —

— جون فاين ؟

— نعم نعم هو بعينهِ

— يكفي . سلام وحرية

— امين . حرية وسلام

ثم انصرف السائقان وبقي دورسكي وحدهُ فقال : —

— والآن ياجون فاين . بقي ان الامر انحصر فيما بيني وبينك . فاحذر ان أُصيب لاديسلاز غالتزن باذيً في قلعة شلسبرج . نعم احذر كل الحذر فان الارض بما رحبت أضيق من ان تواريك عن النظر

الفصل الخامس

الاميرة كارليتا

وبعد يومين جلست الاميرة كارليتا غالتزن في احدى غرف قصرها السنلى ناكسة الرأس مشتتة الحواس قريحة الاجفان اليئة الاحزان وهي تُعيد النظر مرة بعد اخرى في مستودع اوراقها بلهفة واهتمام لا مزيد عليهما لعلَّها تظفر بما انقطعت للتفتيش عنهُ . ثم سمعت وقع اقدام في الدار واذا بباب الغرفة انفتح وجون فاين داخلٌ بغير استئذان وبعد ما جلس قال مفتتحاً كلامهُ : —

— كنت انتظر من لطف الاميرة ان ترسل وتدعو عبدها المطيع بعد غيابهِ عنها ثماني واربعين ساعة . فماذا حدث جديدًا وايُّ امرٍ خطيرٍ جرى فشغل الاميرة عني . قال هذا مبالغا في النكر ما شاء ومتناهيًا في المكر والدهاء . فاجابتهُ مطرقةً معرضة : —

— كنتُ عندما ذهبا فريسة مكيدتك وهما الآن على فراش النزع يجرعان غصص الردى اليوم او غدا

— اليكِ ايتها الاميرة عن المجاز ولا تكليني بالالغاز

— ليس في كلامي شيءٌ من الغموض والخفاء بل هو غاية في الصراحة والجلاء . اما وانت الجاني على امراةٍ وطفلها جنايةً لا تغتفر لمجرَّد حب الانتقام من رجلٍ لم يوقع بك اقل ضرر . وليس لهُ ذنبٌ ولا جريمة سوى اطلاعهِ على دخيلة نفسك الاثيمة

— لا اعلم ما تعنين بهذا فلم ارتكب قط جنايةً ولا سعيت باحد

— اعني انك سعيت في القبض على اخي بواسطة كتابٍ استودعتهِ وانت سرقتهُ من هذا المكان شأن الخانة الانذال

— يسوءني ولا شك ان يسوء مصير اخيكِ . على ان من كان ذا علاقة مع الخائنين المؤتمرين على القيصر ليس لهُ ان يتزوج ولا سيما هذا الزواج السرّي

فنهضت الاميرة ودنت منهُ وقالت : —

— من اعلمك اني اتكلم عن امرأة اخي ؟

فادرك خطأهُ واجابها : — لم اعلم ولكن ظننت ومن شدة هياجك استنتجت انَّ —

فاعترضتهُ وقالت : — اي جون فاين خلّ عنك الكذب والبهتان لم انتظر منك رفقًا ولا رحمة لاني لستُ اجهل قسوتك وشراستك . ولكني اخجل — نعم اخجل عنك الى حدّ اني اخجل منك فماذا فعلت بالرقيم ايها الوغد . فقال

— اخشى ايها الاميرة ان يتحول بينا هذا المشهد الى ما لا تشتهيهِ ويتعذَّر علينا تلافيهِ فان كان اخوكِ قد أُخذ بخيانة نفسهِ فذلك يشقُّ عليَّ جداً لانهُ سيعود عليك بنتائج محزنة وان كان خرقهُ ونزقهُ حملاهُ على عقد زواجٍ سري فذلك ايضاً يسوءني بالنظر الى سوء عاقبتهِ على سريتهِ . وان كانت قد ماتت كما ذكرتِ فذلك خيرٌ لها وابقى من ان تعيش قرينة رجل منفيٍّ في سيبيريا

— يا لك كلباً

— احذري ايها الاميرة فاني لستُ متعوِّداً الصبر على مثل هذا الامتهان ولستُ بصافح عمن يتعمدهُ نحوي ولو كان هو اياكِ اسمعتِ ؟ لا اعفو ولا اصفح . وهل تظنين اني رجل حلو المذاق يسهل العبث بهِ على من يريد ؟ او نسيتِ اني قبل الآن برهنت لكِ فساد هذا الظن باجلى بيان ؟ فتذكَّري ان نفعت الذكرى واحذري ان تعودي الى مثل هذا التعدي

فاشارت بيدها الى الباب وقالت : —

— اذهب عني يا أشأم من البوم ولا تدعني بعد أرى وجهك المشوم ونفسك المطبوعة على الخساسة واللؤم . اذهب والاَّ امرتُ خادمي ان يأتي ويخرجك مصفوعاً بيدهِ مرفوساً برجلهِ . او تظنني انا — انا كاريتا غالتزن — ارهب جانبك يا جاسوس البوليس ؟ ساء فألك وخذل شأنك . اسمعتني ؟ انا انا المطالبة بما يصيبك من الامتهان ان لم تغرب عني

— أرى على كلٍّ انهُ لا فائدة من هذه المشاحنة ومن الصواب حسمها الآن ريثما يسكن جاشكِ وتصبحين قادرة على الاصغاء الى دفاعي عن نفسي . لاني انكر كل هذه التهم وسوف يبرهن لك المستقبل صدق كلامي ويكون الاختبار اكبر مدافعٍ عني واعظم محامٍ والآن استودعك الله على رجاء ان تكوني في المرة التالية ارقَّ جانباً واسهل مراساً ولقد عذرتكِ على ما فرط منكِ لخبير الناس من عذر

قال هذا وخرج يتعثَّر باذيال الخزي والخجل ولما خلت الاميرة بنفسها عادت الى ما كانت عليهِ فاخفت وجهها بين يديها ووصلت سلسلة افكارها التي قطعها قدوم جون فاين . ثم نهضت واستعدت للخروج من القصر عازمة على السعي في الاجتماع باخيها كيف كان الامر غير جاهلة صعوبة الموانع التي تحول دون وصولها الى مطلوبها

نقضت ذلك اليوم جائلةً في دوائر الحكومة العليا من عند وزير الى آخر حتى التمست اخيراً فأُجيز لها ان تقابل القيصر نفسهُ وما خيم الليل الاَّ كانت مسلحة باوامر عالية تأذن لها في المرور الى قلعة شلسلبرج مصحوبة برئيس البوليس الحربي

الفصل السادس

قلعة شلسلبرج

في احدى الجزُر المتجمعة على مصب نهر نيفا ابنية عديدة محشودة لا يؤذن لسوى زورق واحدٍ في الدنو منها. واحد هذه الابنية العظيمة قلعة شلسلبرج الهائلة او احد السجون الذي يلقى فيهِ المأخوذون بالتهم السياسية. ومنها بناءٌ آخر يدعى قلعة القديسين بطرس وبولس وقد وصف كاتبٌ اميركيٌّ قلعة شلسلبرج بقولهِ : —

"انَّ حراسها منتشرون على شاطئ الجزيرة في نقط متقاربة بحيث يستطيعون أن يكلموا بعضهم بعضاً. وهم مأمورون أن يطلقوا النار على كل من حاول الاقتراب من القلعة دون ان يسبق ذلك انذار او يتقدمهُ سؤال . وعندما تطأ قدم غريب حافة الشاطئ يسددون البنادق صوبهُ ويشوون بالرصاص قلبهُ فتسقط جثتهُ الى النهر وتطفو عائمة على البحر ويذهب دمهُ هدراً. وانما يجوز لزورقٍ واحد ان يأتي الجزيرة وهو مصبوغ اسود وتحت امرة البوليس خاصة ولم يرجع قطُّ واحدٌ من الذين قضى عليهم سوءُ الحظِ بالسجن في تلك القلعة والشائع عند الاكثرين انَّ كلَّ من يساق اليها لا يعود منها سالماً الاَّ للذهاب الى سيبيريا"

فالى هذه القلعة جيء بالامير لاديسلاز وفي مساء اليوم الذي فيهِ كلامنا جلست الاميرة كاترينا في ذلك الزورق (زورق البوليس) قاصدة القلعة ومعها ضابطان

فلما بلغت مدخلها لقيها قسيس السجن وكان قد جاء الى هذه القلعة من عشرين سنة يصلي للنيهيلست المسجونين ويقوم امامهم بفروض الدين . فاستقبل الاميرة منقبضاً وحياها وقال : —

— تشجعي يا ابنتي وتجلدي . ان اخاكِ الامير مريضٌ جداً. فانهُ عند وصولهِ اودعوهُ اوطأ مكان في القلعة حيث ناشتهُ مخالب البرد والرطوبة ونشبت في جسمهِ الغض الناعم اظفار العفونة والفساد . اذاً استعدي لملاقاة تغيُّر عظيم فيهِ

— ويلاهُ ؟ هل مات ؟

— كلا يا ولدي

— اذاً هو في حالة النزع ؟

— نحن في يدي الله ؟

فاخذت بكمهِ وقالت : — قل لي بعيشك قل لي يا أبتِ المحترم اما سقوهُ سمّاً ؟

فرسم الكاهن علامة الصليب على وجههِ وقال : نحن يا ابنتي في يدي الله . تعالي معي

وانظريهِ . فقد نقلوهُ الى الطبقة العليا

وكان الامير لاديسلاز قد نُقل الى غرفة عالية تشرف على المدينة وانوارها تتألق على وجهِ الماء تألق الكواكب في السماء . فبرح الخفاء لدى الاميرة حينما رمقت جسمهُ الناحل المنجل وابصرت ظلَّ الموت مخيماً على عينيهِ حتى انهُ بالجهد استطاع ان يعرفها . ثم تكلف الجلوس بمشقة شديدة وقال لها بصوتٍ خافتٍ : —

— كاريتا اين نادين ؟

— لاديسلاز — اخي — واحرقة كبداه ؟ ماذا أُخبرك بل بمَ أُجيبك على هذا السوال ؟

ثم جثت على ركبتيها بجانب اخيها . اما هو فرفع نفسهُ بجهد عنيف مرَّةً ثانيةً واتكأ على جنبهِ وقال : —

— اين هي ؟ لماذا لا تجيبيني ؟ أجيبي يا اختاهُ . هل قتلها ايضاً ؟ نعم ! نعم ! ماتت نادين ! أليس الامر كذلك ؟ فلم يجاوَب بسوى تنهدات تلك المسكينة المنكسرة القلب المضغوطة باثقال الحزن والكرب . ثم أسرَّ اليها بنفَسٍ متقطع وفكرٍ متضعضع : —

— كاريتا . تنتقمين لنا انتِ والكس ؟ اصغي اليَّ . اني أُخذتُ بكيدة جون فاين لانهُ سرق الكتاب من عندك ولا اعلم — او لا يهمني ان اعلم — كيف تمكَّن من ذلك . والكتاب الآن عند كيراتيف . فاحلفي لي انك تنتقمين من ذلك الغدَّار وتأخذين بثاري وثأر نادين :

— احلف لك يا شقيق الحياة اني سانقطع للأخذ بثأركما حتى تدركني الوفاة

— شكرًا لله ! اقتربي اليَّ اكثر . لا أقدر أن اراكِ . لكنك انت هنا ايها الاب المحترم . اليس —

ثم انتهت عبارتهُ بتنهُّدٍ عميقٍ اختطفتهُ اختهُ من فيهِ بقبلةٍ يكفي لوصفها قولنا انها قبلة شقيقة لشقيق . وعندها قضي الامر وتوفي الامير لاديسلاز

وفي الساعة الثانية عشرة (نصف الليل) بلغت أُختهُ الشاطئ راجعة من القلعة

الفصل السابع

انتقام امرأةٍ

وفي اليوم التالي جلس رئيس البوليس ديمتري كيراتيف في ديوانهِ يراجع الوقائع الحادثة منذ ايام . ولم يسرَّهُ سير تلك الحوادث لانَّ قيامهُ بوظيفتهِ كرئيس الفرقة الثالثة المخيفة كان

يفرض عليهِ اقتحام الاخطار وركوب الاهوال ولم يخفَ عليهِ انهُ هو نفسهُ كان آلةً للانتقام السري الذي تحتمَّ عليهِ اجراؤهُ والاَّ أُتهم بمشايعة زعماء النيهيلست الحاضرين في كل مكان (في روسيا) . وفيما هو جالسٌ متكرّهاً مشمئزًّا ولاسيما من هول حادثة الامير لاديسلاز التي جرت على طريقةٍ وحشية لم يسبق لها نظير اذا باحد القائمين بين يديهِ قد عرض عليهِ اسم الاميرة كاريتا طالبة الاجتماع بهِ

واذ لم يجد سبباً يبعثهُ على رفض طلبها بل رأى بواعث كثيرة تدعوهُ الى اجابة ملتمسها أمر بادخالها . ولم تلبث ان دخلت وجلست على كرسيٍّ مقابلهُ واخذا ينظران احدهما الى الآخر ساكتين فافتتح الكلام بقولهِ : —

— ماذا عسى ان استطيع فعلهُ لسموّ الاميرة ؟

— انك قادرٌ على فعل اول وآخر معروفٍ يتوقعهُ منك كل عضوٍ من اعضاء عائلتنا جزاء لكلٍّ او لواحدةٍ من الايادي التي لنا عليك

كل ما اقدر عليهِ افعلهُ للاميرة غالتزن بمزيد الرضى والسرور

— حسنٌ وهاك ما اريد . فليس بخافٍ عليك ان اخي مات الآن وقد قُبض عليهِ بسبب امراتهِ التي انحصر العلم بوجودها فيما بيني وبينك . وقد ماتت هي وطفلها ايضاً على ذراعيَّ بعد ما أُخذ عنها لاديسلاز باربع وعشرين ساعة فما اطلبهُ منك هو الرقيم الذي قُبض عليهِ بسببهِ

— ايتها الاميرة . اني انكر وجود رقيمٍ سبَّب القبض على الامير لاديسلاز ولكن هب انهُ موجود فلا يسعني ان اجيب طلبكِ لان اوراقاً كهذه — اذا وجدت — يترتب عليَّ حفظها بضبط لاني مسؤولٌ عنها واذا فقدت مني جوزيتُ عنها بجواز ذئب[1] ومعلوم عندك ان الشغل الشاق في معادن سيبيريا مدة حياتي ليس بالامر السهل عليَّ

تمهَّل عليَّ دقيقة فابرهن صحة كلامي ان الامير لاديسلاز قُبض عليهِ بسبب رقيمٍ جاءهُ من دورسكي زعم النيهيلست وهذا الرقيم سُرق مني وأُعطي لك من احد وكلائك الغرباء جون فاين . فبكل حقوق المعروف اطلب منك هذا الرقيم الآن

— ايتها الاميرة . لستُ في مقام يدعوني الى الحكم في صحة كلامكِ ولست أرى قوةً تخوّلك حق طلب هذا الرقيم مني او الاطلاع على علاقة جون فاين بهذه الادارة . فاذا لم يكن عندكِ شيءٌ آخر وجدتُ نفسي مضطرًّا ان استأذنك في الانصراف من هذا الاجتماع الذي يؤلمني — صدقيني — قدر ما يؤلمك

(١) هذا الجواز يعطاهُ من يحكم عليهِ بالنفي الى سيبيريا

فظلت الاميرة بضع دقائق ساكتة لا تفوه بكلمة . ثم فُتِحَ عليها بما رأتهُ اقوى وسيلةٍ تمكنها من نيل مأربها فالتفتت الى كيراتيف وكان قد تحفز للوقوف متوقعاً ختام هذه الجلسة وقالت : —

— اي ديمتري كيراتيف . لستُ اقول شيئاً من جهة العلاقة التي بين عائلتينا ولكني ارفع دعواي اليك كرئيس بوليس روسيا الذي اصبح مستودع اسرار عائلات كثيرة وقلما تجري حادثة غريبة خطيرة لا يحيط بها علماً . وسأقصُّ عليك حادثة محزنة لم تسمع قط بمثلها فارعني سمعك : —

وبعد ساعة — عند فراغها من سرد قصتها — نهض رئيس البوليس من مجلسهِ وذهب الى خزانةٍ من حديد وفتحها واخرج منها الرقيم واعطاهُ للاميرة وقال : —

— انَّ ما قصصتهِ عليَّ الآن اقنعني كل الاقناع بأن لكِ حقاً صريحاً في طلب هذا الرقيم فانهُ كتابٌ اختلسهُ منك جون فاين الانكليزي . ولتطب نفس الاميرة لان هذا الرجل سيبرح هذه البلاد في الحال ولن يعود اليها الى الابد . وبعد ثلثة ايام يجتاز تخوم روسيا

فودعتهُ وخرجت تقول : — اخيراً ! اخيراً ! حصلت على المراد . فيالثارات لاديسلاز ونادين ! شكراً لك يا الهي شكراً لك

وبعد خمسة ايام شاع في بطرسبرج ان جون فاين الذي كان فريدة عقد السراة الاماثل وزينة الاعياد وبهجة المحافل طلع عليهِ اللصوص عند تخم بولونيا فكسروا مركبتهُ وقتلوهُ . ولما بلغ هذا الخبر الاميرة كارينا جثت على ركبتيها وصرخت الى الله مرددة قولهُ : — لي النقمة ! لي النقمة ! انا أُجازي يقول الرب !

الفصل الثامن

حفلة تنكر

كانت حفلة التنكر العظيمة في مرسح فينا ليلة ١٥ اغسطس سنة ١٨٧٦ في إبان انعقادها وقد بلغت اعظم ما يُعهد لنظيرها من حشد القوم وازدحام الاقدام حتى كنت ترى ذلك المكان كلهُ داخلاً وخارجاً في اسافلهِ واعاليهِ غاصًّا بالقائمين بملابس التنكر رجالاً ونساء . فهنا في ردهاتهِ وهناك في اروقتهِ وهنالك في شرفاتهِ قومٌ يروحون ويجيئون قائمين قاعدين قامصين راقصين غير تاركين نوعاً من الازياء الغريبة المضحكة في الملابس الاَّ وقد مثلوها على اختلافٍ في المقاصد وتباين في المنازع فالبعض اتوا ذلك متمتعين بالمسرَّات الناتجة عنهُ والبعض اتخذوهُ وسيلةً للحصول على ما يكسبهم متعة السرور والبعض الآخر تكلفوا التمتع اي تظاهروا بانهم

متمتعون بتلك الالعاب المجونية والتسالي الهزلية

وقد كان ذلك المشهد على قول الرواة بهجاً ساراً الى الغاية . على انهُ ما لم يكن الانسان مصحوباً فيهِ بعددٍ من اخوانِ انسهِ وهنائهِ واخدانِ سرورهِ وصفائهِ او لهُ على الاقل علاقة خاصة تبعثهُ على الاهتمام بمقاسمة ما يعرض فيهِ من صور الالعاب واشكال التمثيل كان يبدو لهُ ذلك المعرض من اكبر الموحشات واعظم بواعث الانزعاج والانقباض ودون كل وسائل اللهو بهجةً ورونقاً

ولم يكن بين جميع الحضور رجلٌ نظر الى ذلك المرسح العظيم بعين المقت والاستكراه نظير او بين غودارد قائد الفرقة العشرين من الفرسان سابقاً ورسول الملكة حالياً

وكان هذا القائد ذا هيئةٍ فاتنة ساحرة وملاحة لقلوب ربات الجمال آسرة . طويل القامة يقصر لديهِ اطول الرجال وعريض المنكبين كأحد الجبابرة الابطال . يكسو رأسهُ شعرٌ اثيث جميل و ينبثق من محياهُ الباهي نورُ ذكاء لا يدع الى الريب في توقد ذهنهِ من سبيل . ولهذا وجد نعمةً في عيون اكثر المتنكرات واصبح فتنة اللواحظ الساحرات الفاتنات ومبعث سباق القلوب اليهِ ومدعاة تحويم النفوس عليهِ

على انهُ كان خالي الذهن من هذا الاهتمام ذاهلاً عن هذا السباق والزحام مشيحاً بنظرهِ عن هذا الامر الواضح الجلي ولسان حالهِ يقول اين الشجيُّ من الخلي لاناقتي في هذا ولا جملي . وهو قائم في مجلسهِ متثائباً متمطياً يراقب حوادث تلك الحفلة العارضة بعين الفتور والتراخي و يعجب كل العجب من الصدفة التي اوجدتهُ هناك في مثل هذا الوقت الذي كان يفضل ان يكون فيهِ مضطجعاً على فراشهِ . لانهُ كان قد قدم فيناً في المساء الماضي رسولاً من قبل ملكة انكلترا وفي الصباح سلّم الرسائل لنظارة النمسا الخارجية وعزم على السفر بعد ظهر اليوم المقبل

وكان الجوُّ السياسي في مدة الخمس سنين الماضية قاتماً مكفهرّاً لما تلبّد فيهِ من سحب المسألة الشرقية المطبقة التي أخذت تتجمع منذ سنة ١٨٧١ في سماء الشرق الادنى حتى تراءى انها موشكة ان تكتنف شبه جزيرة البلقان وتمطرها وابلَ حربٍ عوان تدمرُ مساكنها وتخليها من السكان . وقد افضت الى اصدار "لائحة اندراسي" الشهيرة في شهر ديسمبر عام ١٨٧٥ فقلقت لها اوربا باسرها واضطربت نفوس مشاهير ساستها ووجفت قلوب ملوكها وعظمائها وانقضى عام ١٨٧٦ في المفاوضات بين لندن وبرلين وفينا والاستانة وحينئذٍ اصبحت حاجة الدول الى رسل اكفاء وسفراء امناء شديدة جداً . واذ كان القائد اوبين غودارد اهلاً لهذه الخدمة دعي اليها من قبل جلالة ملكة انكلترا وعُيّن رسولها الخاص الى تلك العواصم

لانهُ كان قد قضى السنين الطوال في التضلع من لغات اوربا والاحاطة بشوارد سياستها . وعلى اثر الحوادث التي جرت في البلغار زاد العالم السياسي اضطراباً واوجس خوف حرب هائلة عامة فاسرعت الدول الى تلافي الخطب بعقد مؤتمر في الاستانة في شهر بنايرسنة ١٨٧٧ . وهكذا وجدنا القائد اوبين غودارد في فينا في شهر اغسطس سنة ١٨٧٦ اي قبل عقد المؤتمر بنحو خمسة اشهر

واذ كان رسول الملكة وحامل اوامر مهمة لم يستصوب اظهار نفسهِ لاصحابهِ ومعارفهِ في عاصمة النمسا فلزم جهدهُ جانب العزلة والانفراد وبعد ما سلَّم الرسائل طلب لنفسهِ تنزهاً معتزلاً في احدى المركبات . ثم رجع متثاقلاً بين يدي السآمة والضجر لا يدري كيف يشغل وقت فراغهِ ويقضي ساعات الليل المقبل والنهار التالي الى الوقت المعين لرجوعهِ الى النظارة الخارجية واخذهِ منها اجوبة رسائلهِ

لكنهُ لم يبلغ الفندق الذي كان نازلاً فيهِ حتى أُجيب سؤلهُ بكتابٍ دفعهُ اليهِ خادمٌ عند دخولهِ فتناولهُ وأخذ يقلبهُ متحيراً ماذا عسى ان يكون وممن اتاهُ لانهُ لم يعلم احداً بقدومهِ . ولم يستطع ان يتعرّف الكاتب من خط العنوان اذ كان غير مألوفٍ لديهِ ولا معروف عندهُ وهذا نصهُ : — الى الشريف القائد اوبين غودارد

هذا فضلاً عن انهُ لم يكن فيهِ من دلالة تشير الى كتابتهِ بيد رجل او امرأة . واخيراً رأى ان حلَّ هذا اللغز انما يكون داخل الغلاف ففتحهُ واذا داخلهُ خاوٍ خالٍ لا يتضمن شيئاً سوى " ورقة دعوة " الى حفلة " التنكر " المعقودة في مساء ذلك اليوم

فقال في نفسهِ " مهما يكن في الامر فاني ذاهب وليس من محذور في هذا لاني اعرف كيف احفظ نفسي ولا ريب في ان من دعاني او دعتني (؟) الى هذه الحفلة سوف يستعلن او تستعلن لي هناك "

وبناءً عليهِ قام بعد العشاء وخرج فاذا بالشوارع مزحومة بالذاهبين الى تلك الحفلة المعقودة والندوة المشهودة والمركبات تخبُّ الى ذلك المرسح مرصوصةً بالركّاب رصًّا وغاصة بها الازقة غصًّا فركب احداها وجاء الى باب " الملعب العظيم " ودخل وجلس الى ان رأيناهُ يتثاءب متمطياً كما مر معنا

وكانت الحفلة اذ ذاك في معظم القيام والالعاب على غاية عرضها وقد مالت نحو الختام . واخذ البعض ينصرفون والبعض يستعدون للانصراف ومنهم صاحبنا او بين غودادر وبينما كان يتمطّى مودّعاً الحفلة بالنظرة الاخيرة شأن العازم على الذهاب اذا بامرأة جازت مقابلهُ

فنظر اليها وشاهد منها قدًّا رشيقاً كالغصن يتأوَّد قائماً في مطرفٍ حريري اسود يوشك ان يسيل رقةً و" يكاد من اللطافة يعقد " وقد أسدلت على نصف محيَّاها قناعاً اشدَّ سواداً من خافية الغراب ترشق من ورائهِ سهام الحاظٍ تصمي القلوب وسحر اجفانٍ يخلب الالباب

وفيما غودارد يتمتع بمشاهدة هذه الذات المجمَّلة بابدع المحاسن استمال نظرهُ عروض رجلٍ يحجلُ وراءها متأثِّراً لها وهو متنكِّرٌ بزيّ ماجنٍ ولابسٌ " وجهاً لهُ من كل قبيحٍ برقعٌ " وبعدما توارت المرأة بين الجمع أبصر غودارد ذلك الماجن يمازحها وهي تشيح عنهُ بعين السآمة والملل واذ راق لعيني اوبين هذا المنظر وآنس شيئاً من التسلية في هذا المظهر استأنف الجلوس في مكانهِ متوقعاً عود تلك الفتانة المتنكرة وما كاد الجلوس يستقرُّ بهِ حتى ذعرهُ صراخ وراءهُ فالتفت واذا بها مسرعة في الهرب من وجه ذلك الماجن الذي عدا يجري وراءها حتى ادركها حيث كان غودارد جالساً وفي اجتيازهِ بها القى الى يدها ورقة لم تلبث هي ايضاً ان القتها الى الارض وفي اقل من طرفة عين غابا كلاهما عن الابصار فانحنى غودارد والتقط تلك الورقة وفتحها فوجدها غفلاً من الكتابة فقال في نفسهِ " مهما يكن من هذا فلست بتاركٍ ذاك الماجن الوحشي يمتهن قدر هذه الغادة الحسناء " ثم نهض وسار في جهة مسيرها يخترق الصفوف المزدحمة حتى دنا من المتنكرة فأبصر الماجن واقفاً قدامها يروم محادثتها اما هي فنفرت منهُ ودارت تحاول الفرار واذا بغودارد الذي كان وراءها اصبح قدامها فاقبلت عليهِ وكادت تلقي نفسها بين يديهِ وقد خاطبتهُ بانكليزية صريحة لا يخالطها اقلُّ لهجة غريبة : —

— ارجو عفوك

— بل انا ارجو عفوك . هل من خدمةٍ اتشرَّف بالقيام بها لديكِ؟ اراكِ مضطربة ومنزعجة

— سر بي الى مركبتي واغنم شكري وثنائي

— لبيكِ وسعديكِ

ثم مد اليها ذراعهُ وقد دار بنظرهِ مفتشاً عن ذلك الماجن الذي توارى عن النظر واذ لم يجدهُ سار بها الى الباب الخارجي وهناك خاطبتهُ :

— ارجوك ان لا تؤاخذني ولا تخطئ ادراك ما اردتهُ بالتماس مساعدتك وقد لذتُ بك كانسانٍ انكليزي واثقة بانك لا تنظر اليَّ كواحدة — من — اولئك —

فاعترض تتمة كلامها بقولهِ : —

— بلا ريب

ولما اتيا الى حيث كانت مركبتها تقدَّم غودارد وفتح بابها فوثبت اليها في الحال . اما فهو

فاذ رأى نهاية مسعاهُ الى هذا الحد من الاخفاق قال لها : —

— هل تريدين ان اسير بحمايتك الى حيث تأمنين الخطر؟

— كلاَّ لاني في امن مذ الآن

— هل ادلُّ السائق ؟

— لا حاجة لهُ الى دليل

افلا تسمحين لي على الاقل ان ازورك غدًا واطمئن عن سلامتك ؟ وبعد ما اطرقت هنيهةً أجابت : —

— هل تعدني انك اذا سمحت لك بهذا لا تسألني شيئًا عن امري وتنسى بعد ذلك اجتماعنا للابد ؟

فقال بملء اليأس

— نعم

— بشرفك ؟

— بشرفي

— حسنٌ

ثم اخرجت رقعة وكتبت عليها بقلم رصاص كلمة او كلمتين ودفعتها اليهِ قائلةً : —

— شرفني بتناول الغداء معي في المكان الذي يدلُّ عليهِ هذا العنوان

— متى ؟

— غدًا بل اليوم لانهُ كاد يطلع النهار

— سأراعي الميعاد بكل ضبط

— حسن . استودعك الله الى الملتقى مع الف شكرٍ وثناء عليك ايها القائد او بين غودارد

فعجب من معرفتها اسمهُ ونكص الى الوراء ليغتنم النظرة الاخيرة من المركبة التي ما ابطأت ان أُديرت واعمل السوط في ظهر جوادها فعدا كالبرق الخاطف واوغل في الجري تحت اطباق الظلام . فذهب غودارد بالرقعة الى اقرب مصباح منهُ وعرضها على نورهِ فرأى مكتوبًا عليها باحرف كبيرة " البارونة التدورف "

ويليها عنوان مكتوب بقلم رصاص

فاشعل سيكارهُ ودار نحو مدخل الملعب على طريق الانصراف الى مبيتهِ مرددًا في ذهنهِ صور هذه المعارض . وهو بين مصدّقٍ لها ومكذب

الفصل التاسع

البارونة التدروف

مهما يكن من امر الساعة الاخيرة التي قضاها القائد اوبين غودارد في الملعب فانهُ قضى بعدها ساعةً أُخرى في مخدعهِ تائه الافكار مشرَّد الحواس يضرب في حوادث ليلتهِ — بل حادثتها — اخماساً لاسداس وخرج قبل ظهر ذلك اليوم بساعتين قاصداً الملتقى في الاجل المضروب

وقد يصعب على الكاتب وصف حالة القائد اوبين في اثناء مسيرهِ . فانهُ اجهد قواهُ عبثاً في الاطلاع على شيء من امر هذه البارونة ليعرف لها اصلاً ونسباً وكاد يخالط في عقلهِ من شدة الحيرة والدهشة اذ لم يجد في صوتها او حركاتها شيئاً باعثاً على الحذر والارتياب بل كانت كلها ناطقة بكرامة اصلها وحسن تربيتها ولم يستطع ان يأخذها بكلمة نطقت بها شفتاها الجميلتان جزافاً ولا بنظرةٍ سمحت بها عيناها الساحرتان تهكماً واستخفافاً . ومع ذلك تعرَّفت بهِ على طريقةٍ مبهمة جداً وعينت لهُ مكاناً للاجتماع بها على اسلوبٍ في غاية الابهام . ومعلوم ان ركوب مثل هذه الاخطار كان محظوراً على من جاء رسولاً من قبل ملكة انكلترا ولكن غودارد لم يخطر ببالهِ انهُ سائرٌ في طريق الخطر او مقدم على ما يوجب الخوف والحذر . ومما رابهُ ايضاً انهُ لم يقدر ان يتحقق جنسيتها ولا توصل الى معرفة وطنيتها . نعم انها خاطبتهُ بالانكليزية الفصحى ولكنهُ مع ذلك آنس منها ما الجأهُ الى الحكم بانها ليست مولودة انكلترا او انها برحتها منذ وقت طويل . واذ اعيتهُ الحيل في الوصول الى مبتغاهُ وسدَّت في وجههِ ابواب التبصر والاستطلاع اضرب عن الخوض في لجج هذه الافكار العميقة وعمد الى قطع ما بقي عليهِ من الطريق في تصوُّر استقبال البارونة لهُ . فطفق يمثل امام عينيهِ هيئة المكان الذي تدعوهُ اليهِ وما فيهِ من نفائس الرياش وفاخر المفروشات وانتقل منهُ الى تصوُّر الهيئة التي تقبل عليهِ فيها فشرع يتخيل صورة وجهها الباهي وجمال منظرها ورشاقة قوامها وحسن ملبسها ولذة الطعام الذي يتناولهُ معها ورقة الانغام التي تشنِّف مسمعهُ بها بعد فراغهما من تناول الطعام بالضرب على البيانو او على القيثار الى غير ذلك مما يطول شرحهُ ويتعذَّر استيفاؤهُ

ثم انقطع سلك تصوراتهِ بغتةً بداعي وصولهِ الى "منزل التدورف" الذي كتبت لهُ البارونة اسمهُ على الرقعة التي اعطتهُ اياها في الليلة الماضية

وكان هذا المنزل قائماً في ضاحية المدينة في بقعة عامرة بالمناظر البرية يحيط بهِ سياج يفصلهُ عن الطريق ويخفي اسافلهُ عن عين الناظر اليهِ من الخارج ولهُ بوَّابة موصدة تفتح الى

ممشى متعرّج يقود اليهِ . وعليهِ لم يستطع ان يستفيد شيئاً من مجرد النظر الى هذا القصر لانهُ لاح لعينيهِ مقفراً يخيم فوقهُ ظلال الوحشة وجميع نوافذهِ وكواهُ مغلقة بمصاريع ثقيلة وليس من دخان يصعد من مداخنهِ ولا شيءٌ من مظاهر الانس يبدو داخل ابوابهِ المحكمة الايصاد والتقفيل

وبالجهد تمكن من ضبط نفسهِ عن اظهار التعجب الشديد وقد انستهُ هذه الظواهر الموحشة وعدهُ للبارونة بعدم ابداء اقلّ سؤال او استعلام فالتفت الى فلاّح قائمٍ في بستان على جانب الطريق وسألهُ : —

— ما هذا المنزل ؟ فاجابهُ بعين الحذر والارتياب : — هذا منزل التدورف

— ومن ينزلهُ ؟ — لا احد — كيف لا احد ؟

— نعم فانهُ لا يزال مقفلاً منذ وفاة البارونة التدورف من ثلث سنين

— لكنهُ لا يرى مهجوراً

— لان الباقي من عائلة صاحبتهِ يقوم الآن بنظارتهِ وتعهُّد بساتينهِ على انهُ لم يسكنهُ احد قط بعد البارونة

— افي يقينٍ انت مما تقول ؟

فلم يجبهُ الرجل بشيء بل اكبَّ على عملهِ محققاً السائل وساخراً بشدة جهلهِ وغباوتهِ

اما غودارد فلم يكبر عليهِ مصير اقدامهِ الى هذا الحد لعلمهِ انهُ مضطر ان يكون في النظارة الخارجية الساعة الرابعة بعد الظهر ليأخذ جواب رسائلهِ من الكونت اندرامي

فعزم على مداومة السير حتى اذا حان الاجل المعين ولم يظفر بمبتغاهُ لا يعود للبارونة التدروف — اذا جمعتها بهِ المقادير — من حقٍّ في لومهِ على عدم قيامهِ بشروط دعوتها

فواصل التطواف حتى اجتاز حدود المنزل ثم رجع ادراجهُ يمشي الموينا وعند الساعة الثانية عشرة (الظهر) رأى نفسهُ مرة ثانية امام بوابة قصر التدورف فاذا بهِ قد أُخذ بعجبٍ جديد واندهال ما عليهِ من مزيد اذ رأى البوابة مفتوحة فدخلها وفيما هو سائر في الممشى المؤدي الى داخل ابصر مصاريع الكوى والشبابيك كلها مفتوحة والدخان يتصاعد من احدى المداخن عمدًا وينتشر في عنان السماء زردًا . وفي مقدمة الدار كرسيان وامامهما بعض البسط الشرقية وعلى واحدٍ منها "شال" وكتاب مفتوح دلالة على انهُ مقروء فيهِ منذ وقت قصير جدًا

ولما بلغ الباب فتحهُ لهُ خادم ادخلهُ الى غرفة الجلوس المغشاة بالحصر الهندية والمفروشة على طراز لويس الخامس عشر . وفيما هو مأخوذ بملء الدهشة وقد دنا من شباك يشرف على

حديقة غناء اذا بذلك الصوت الرخيم الذي كان لا يزال يرنُّ في فضاء ذهنهِ مدة العشر ساعات الاخيرة يكلمهُ من ورائهِ قائلاً : — اهلاً بالقائد غودارد

فالتفت واذا بمضيفتهِ قادمة تخطر بقوام الين من الخيزران واعدل من غصن البان . تكسوها حلة فاخرة من لدن عنقها حتى اخمص قدميها وشعرها الحالك مضفورٌ الى مقدم رأسها. فوقف غودارد مبهوتاً لا يقوى على التفوُّه بكلمةٍ . اما هي فخاطبتهُ : —

— ها قد جئت في الوقت المعيَّن وحسناً فعلت . فلسوف يكون لنا وقت كافٍ لتعُّرف كلٍّ منا بالآخر او بالحري لاصلاح هذه المعرفة

— اعذريني اذا رأيتِ في كلامي — في اول الامر — شيئاً من عدم الانتظام بداعي حيرتي وارتباكي . فهل تقولين لي اين اجتمعنا قبل اليوم ؟

— ليس الآن بل قبلما نفترق — نعم . انت مضطرٌّ ان تكون الساعة الرابعة في نظارة الخارجية وفي الساعة الخامسة تبرح فينا اليس كذلك ؟ بلى اذاً الاولى بنا ان نتناول اولاً الطعام ثم نتفرغ بعد ذلك لمجاذبة اطراف الكلام

— اني طوع امركِ

— لا تسرع في مطاوعتي اقتحاماً او اكراماً بل ترسَّل في مجاوبتي بحرية وكان يجب عليك ان تسيء ظنك فيَّ . وعلى الاقل سلم انَّ تصرُّفي معك كان نادراً غريباً

— اني — فقاطعتهُ قائلة : اني وددتُ منذ وقت طويل ان اتعرَّف بك وقد سنحت لي فرصة قيامي بخدمتك في ما لا تعلم عنهُ شيئاً . وفي اتمام هذا الامر رميتُ طائرين بحجر واحد . فقد تحزَّبتُ للقائد اوبين في حرب سياسية شرط الانتفاع بمعرفتهِ . وواضح ان هذا في حربٍ

— فقال وفي حبٍّ — فقالت بلا ريبٍ . قالت هذا متوردة ثم استانفت كلامها : —

— على ان الاول يستدعي الآن معظم انتباهنا على الخصوص . ولكن قم بنا فان المائدة معدَّة وانا جائعة جداً

ثم سارت امامهُ الى غرفة الطعام . وبعد ما جلس على المائدة قال لها : —

— افلا تنعمين عليَّ بايضاح هذه المشكلات المبهمات ؟ واول ما اسألهُ كيف عرفتِ اسمي وثانياً اما انتِ التي ارسلت اليَّ ورقة الدعوة الى حفلة التنكر في الليلة الماضية ؟

— كيف عرفتُ اسمك ؟ وهل يجهل احد في فينا اسم القائد اوبين غودارد رسول جلالتها السياسي الأَلمعي الحامل العريق في الجهل ؟ وانا التي ارسلت اليك ورقة الدعوة الى الحفلة لاسبابٍ اطلعك عليها الآن . وليس بخافٍ عليك شدة ارتياحي الى المسألة التي لاجلها جئت

الى فينا اربع مرات في مدة اربعة اشهر وقد اتاح لي حسن الحظ اجتماعاً بك طالما حدّثت نفسي بهِ

— مهما يكن من غرضكِ ايتها البارونة فان لساني الآن في هذا الاجتماع القصير اقصر من ان يعبر عما اغبط بهِ نفسي على هذه الفرصة السعيدة

— ان رسالتك في غاية الاهمية والمؤتمر سوف يعقد في ديسمبر او يناير

فاجابها متحرزاً : — هكذا يظن

— من الغريب ان انكلترا ترفض لاوامر روسيا وتذعن لمقترحاتها وقد كنت اظن ان حكومتك ترسل اسطولها الى الشرق

— انها لا تقدم على هذا الاّ اذا اخفقت مساعي المؤتمر وقصرت مقدماتهُ عن ادراك النتائج المطلوبة

— اذاً في الزوايا خبايا ولم أُخطىء الظن

فاجابها متلجلجاً وقد اوجس خوفاً تضييقها على افكارهِ واطلاعها على مكنونات اسرارهِ :

— لا اعلم . اراكِ على جانب عظيم من الاهتمام بالسياسة حالة كون افكار السيدات الطف من ان تحدثها حوادث كهذه

— حقاً اني اعظّم شأن هذه الحوادث وانما يقلقني كثيراً ان أرى مصالح الانكليزية مدوسة تحت قدمي غورتشاكوف بواسطة رجلكم غلادستون

فاجابها مقطباً . ليس لرجلنا غلادستون حق المداخلة في هذه الامور ومن العبث تعليل النفس بشيء من مثل حادثة سنة ١٨٧١ وما كان الجوّ ليخلو الآن لروسيا فتمرح وتطفر وتبيض وتصفر

قال هذا لانهُ كان من اكبر انصار حزب المحافظين وقد احفظهُ كلام البارونة الى الغاية فاجابتهُ : — ذلك ما احبُّ سماعهُ من رجل نظيرك وهو خلاصة الرسالة التي بُعثت بها الى هنا . ولا تحاول إخفاء الامر لانهُ لا يسعني ان اتصوّر انك تكذب عليَّ

— لستُ بقادر ان اكذب عليكِ

فنهضت ودعتهُ الى الانصراف عن المائدة بعد ان اكلا كفافهما ثم خاطبتهُ قائلة وقد لاح على وجهها تغير فجائي : لم يبقَ سوى ساعة لخروجك من فينا ففي الساعة الثالثة ونصف تسير بك مركبتي الى نظارة الخارجية ومن ثم الى المحطة افلا تجيب سؤلي في انك ترسل السائق من نظارة الخارجية ليبتاع لك ورقة سفر ويحضر امتعتك من الفندق ؟ اذ لا اريد ان ترجع انت بنفسك

— يخجلني جداً تطفلي على الانتفاع بهذه العناية الشديدة

— عدني ! عدني !

— اعدكِ . ولكن الا تطلعيني على خفايا هذا السر؟

— لا يخفى عليك ان السياسة الروسية نفّاذة لا يعوقها شيء وقد علمت ان بعض وكلاء روسيا يسعون جهدهم لكي يعوقوك في فينا واجمعوا على طلبك الليلة الماضية من الفندق . فبعثت اليك بورقة الدعوة وسببت غيابك عن مبيتك وجئت بنفسي الى الحفلة لاشاهدك واطمئنّ عن نجاتك من اشراك هذه المكيدة . ثم مثّلت امامك ذلك "الدور" وجعلت ذلك الرجل يطاردني و يبالغ في امتهاني على مرأى ومسمع منك لعلمي ان انكليزيًّا نظيرك لا يطيق ان يرى امرأة تهان في حضرتهِ . ولولا هذا لكنت اليوم مسوقًا الى براز او وقوفٍ في دائرة البوليس . ثم مسّت الحاجة ان اواريك هذا النهار عن الانظار وقد خطر على بالي هذا المكان وانت سائر بي الى المركبة لانهم ينتظرونك اليوم في الفندق . فلا تنسَ انك وعدتني بعدم الرجوع الى الفندق

فاجابها وهو يشتعل غيظًا : — اوتظنين ان مثلي يهرب من وجه انسان

فقالت لهُ برصانة : — من واجباتك صيانة ما أُرسلت اليهِ فقال — الحق معكِ

وظلاَّ يتجاذبان اطراف الكلام حتى حان وقت انصرافهِ فقالت لهُ بكل اسف اقول لك اذهب

— اشكر لكِ فضلكِ وعنايتكِ

— اذًا تعفو عن سعيي في اعتراض حريتك ؟

— نعم وذلك في حب وفي حرب — وكلاهما هنا

فتورّدت البارونة وقالت لهُ مادة يدها : — سر بسلام

ولما بلغا باب الدار حاول ان يوضح لها شيئًا من لواعج حبهِ فحال دون ذلك وجود السائق معدًّا المركبة وفاتحًا بابها فاكتفى بقولهِ وهو ضاغط يدها : —

— الى الملتقى — اليس هكذا ؟

— هكذا ارجو

— وعدتني انكِ تخبريني اين اجتمعنا قبل الآن

— امس في الملعب

ثم اغلق السائق باب المركبة وعدا بها حتى بلغ البوابة الخارجية فاطلّ غودارد من كوتها فوجد نوافذ القصر اقفلت كما كانت في الصباح . فقال في نفسهِ : ان هذه المركبة شاهدة على اني في يقظة والاَّ فجميع ما حدث لي كان حلمًا

ولما ذهب السائق الى النزل رأى فيهِ رجلين كانا في انتظار غودارد منذ الظهر ولا يزالان ينتظران

الفصل العاشر

القوة وراء العرش

ان نظام البوليس الروسي منقسمٌ الى ثلث فرق الفرقة الاولى من نوع الشرطة المعروف بالجندرمة والثانية البوليس الاداري وهذه رتّبها القيصر نيقولا لاصلاح شؤون الضباط والمأمورين ولكنها قد عمّت الآن اقطار العالم والثالثة — الفرقة الهائلة المخيفة — مؤلفة من البوليس السري ولها رقباء وجواسيس في كل بيتٍ وفندقٍ وحانةٍ . وهذه الفرق الثلاث يرئسها رجل واحدٌ . وهذا الرئيس كان عليهِ في مشاكل سنة ١٨٧٦ الى ١٨٧٧ ان يقوم بما تضعف عندهُ الهمم وتخور لديهِ العزائم

ثم ان دائرة النظارة الخارجية في بطرس برج هي اوسع واكبر دوائر الحكومة ويليها دائرة النظارة الداخلية وعلى ملاصقة هاتين الدائرتين غرفتان صغيرتان احداهما داخلية تفتح الى رواق والاخرى خارجية تشرف على شارع نيوسكي . وهاتان الغرفتان مفرزتان لاقامة رئيس البوليس واركانهُ كاتم اسرار ومستشاران او كاتبان

وكان البرنس سكولوف رئيس البوليس يقيم في الغرفة الخارجية . ومقامهُ هذا — بين دائرتي النظارتين — يدلُّ على شدة اهميتهِ في احوال السياسة الاوربية . وكل من شاهدهُ جالساً على كرسيهِ المغشى بالاديم لا يفوتهُ ادراك ما كان عليهِ من ضخامة الجسم وشدة القوى الجسدية . ويكفي للدلالة على ذلك يدهُ الهائلة الملقاة على مائدةٍ امامهُ . وهو غير متجاوز الاربعين سنة . غير ان مجالدات الخطوب ومعاركات الايام كانت راسمة على وجههِ خطوط وقائعها الرائعة التي بيضت مفرقهُ مع ان شعر حاجبيهِ وعارضيهِ كان باقياً في شدة سوادهِ دليلاً على تلك الليالي السود التي مرّت برأسهِ . وكان في هذا الوقت يقذف بشرر عينيهِ الحادّتين من تحت جبهةٍ عريضةٍ ووجههُ يسفر عما اعتادهُ في حالة السكون والهدوء . وامامهُ — اذ الوقت صباح — رسائل متنوعة جاءتهُ منذ نصف ساعة وهو آخذٌ في فضها واحدةً واحدةً وبعد ما يعلمها بقلم رصاص ليسهل توزيعها يضعها في كومتين احداهما ترسل الى مجلس الشورى والاخرى تحفظ لكي تطالع مطالعة سرية فيما بعد . لكنهُ لم يلبث ان توقف عن فضها بداعي رسالة تناولها ولم يطل نظرهُ فيها اذ ليس من فائدة في ذلك لانها لم تكن من الرسائل الاعتيادية بل كانت مكتوبة على قرطاس ازرق رقيق مربع الشكل باحرف يونانية على اصطلاح خاص . وغاية ما استطاع تلاوتهُ منها مامعناهُ "الشيطانة الجميلة" . فلم يعد لهُ مندوحة عن انتظار كاتم اسرارهِ الذي عندهُ مفتاح الرسالة السرية وحلُّ هذه الاحجية . على

انهُ ما ابطأ ان طرق اذنهُ وقع اقدام فالتفت واذا بشابٍ دخل الغرفة وجلس على كرسي امام مكتبة فخاطبهُ قائلاً ها قد اتيت يا ديمتري ديمتريفتش فقد كنت في انتظارك

— هل من رسالة من الشيطانة الجميلة ؟

— نعم فاين الآلة التي تحل بها مثل هذه الرسالة ؟

— هنا يا صاحب السمو

— أدرها على ١ ٠ ٥ ٠ ٢ ٠ ر واقرأها بها

قال هذا وسلم الرسالة الى كاتم اسرارهِ ورجع ينفض الرسائل الباقية وعلى مدة نصف ساعة لم يسمع في تلك الغرفة من صوت سوى صرير تلك الآلة المشغول كاتم الاسرار في ادارتها تفسيراً للرسالة السرية حتى اذا فرغ من حلها حرفاً حرفاً نهض ودفعها الى رئيسهِ مكتوبة بالافرنسية وهذا تعريبها : —

" فينا في ٢٤ اغسطس سنة ١٨٧٦

" القائد اوبين غودارد من فرقة العشرين للفرسان مبعوث الملكة الخاص في المسائل الشرقية . عمرهُ نحو ٣٤ سنة وهو انكليزي مهذب من كل وجهٍ ويتعذر استجلاء دخيلتهِ وابتلاء اسرارهِ بالوسائل العادية . قدم فينا في ١٥ اغسطس يحمل رسائل الى نظارة الخارجلية

" اذا عُقد المؤتمر لزمت انكلترا جانب الحياد وان شهرت روسيا الحرب اسرعت انكلترا الى احتلال البوسفور . لا بدَّ من المحافظة على عدم تجزئة المملكة العثمانية . عناية خاصة بباطوم وطرابزون . لا تفصيل غير هذا الآن

" في هذا المساء ابرح فينا شاخصة الى بطرس برج الشيطانة الجميلة "

ثم طوى رئيس البوليس الرسالة الاصلية وترجمتها ووضعهما في خزانتهِ وقال متمتماً : —

— ان هذا في غاية الاهمية . " انكليزي مهذب . يتعذر استجلاء دخيلتهِ لا تفصيل غير هذا " . حقًّا اني لا احب هذا الاسلوب . لكنها قادمة هذا المساء . فلا باس . سوف اقابل هذه المرأة الداهية

ثم سلَّم الرسائل المراد توزيعها الى احد مستشاريهِ وقال لهُ : —

— ابلغ كاتم اسرار نظارة الحرب اني في انتظار ناظرهِ بعد ساعةٍ

ولما خرج هذا التفت البرنس سكولوف الى كاتم اسرارهِ ديمتري ديمتريفتش كيراتيف وقال :

— اتحقق ان اباك ديمتري كيراتيف لم يشر الى اسم هذه البارونة التدورف او — كما يدعونها — الشيطانة الجميلة

— نعم ياصاحب السمو فانهُ لم يذكرها قط . ولكن بعد حدوث المكيدة التي نُصبت لاغتيال جلالة القيصر واصيب فيها ابي بجرحهِ المميت ذكر لي امرأة عندها مفتاح الرسائل السرية لكنهُ لم ينه قط باسمها وكنت حينئذٍ صغيرًا جدًّا . فغشي محيا البرنس سكولوف ضبابة كثيفة عند سماعهِ هذا الكلام لان المكيدة التي نُصبت للقيصر ولاقى فيها رئيس البوليس السابق حتفهُ كانت موضوعًا مَنعَ الرئيس الحالي — لاسباب سياسية — البحث فيهِ امامهُ . اما كاتم اسرارهِ فاعتبر شخصًا ممتازًا في وظيفتهِ من حيث كونهُ تحت حماية الرئيس الحالي وابن الرئيس السابق ولما اغتيل ابوهُ ديمتري كيراتيف كان هذا الفتى من موظفي دائرة البوليس وحين دُعي البرنس سكولوف الى وظيفة ابيهِ طلبهُ وعينهُ كاتم اسرارهِ . اما دورسكي رئيس عصابة النيهيلست فلم يعد يعرف عنهُ شيء وشاع انهُ قتل في اودسا بعد ذلك بوقت قصير وان جماعتهُ تفرقوا . ومن ذلك العهد منع الخوض في مسألة مؤامرتهِ وعدت من جملة المواضيع التي لا يسوغ البحث فيها في دائرة البوليس . اما الان فلم يبدِ هذا الرئيس لكاتم اسراره اشارة الصمت عن هذا البحث بل استفسر منهُ كمن تذكر شيئًا غامضًا عن حادثة منسية قائلاً

— كيف كان كلام ابيك معك بخصوص هذه المرأة ؟

— قال لي : "يا ديمتري اذا دعيت يومًا الى مقام خطير في هذه الفرقة فهنا مثال لآلة الكتابة السرية الذي تحل بهِ جميع المراسلات السرية . ومتى راسلتك امرأة على هذا النمط اطلع رئيسك على رسالتها وقل لهُ اني انا ديمتري كيراتيف خلفت لهُ وصية الاحتفاء بها والالتفات بعين الاهمية الى جميع رسائلها . وليثق بها مطمئنًا لان زمام نجاح مملكة روسيا المقدسة في قليها وقد يكون في يدها" ولذا ارى يا صاحب السمو ان "الشيطانة الجميلة" هي المرأة المعينة بوصية ابي لانهُ لم يؤتمن على آلة كتابتهِ السرية من يقلدها او يسيء استعمالها

— اظنك مصيبًا بهذا ثم تفرغ رئيس البوليس بعد هذا للاجتماع بناظري الحربية والخارجية الى الساعة الرابعة بعد الظهر . وحينئذٍ انصرف كاتم اسرارهِ ومستشارهُ وادخل اليهِ خادم مصباح المطالعة فمد يديهِ متمطيًا كمن اكمل شغلهُ او انتقل الى عمل اخف واسهل . ولم يكن يخطر ببال من ينظر اليهِ جالسًا على هذا الاسلوب من التواني والتثاقل ان هذا الذي يستطيع بكلمة واحدة ان ينفي كثيرين الى سيبيريا او يغرق الحكومة في لجج عراقيل طامية كان قبل ان تراهُ في رئاسة البوليس بثماني سنين — الكسس دورسكي زعيم النيهيلست

نعم كان هو اياهُ ولم يعلم بهذا احدٌ سواهُ بل جميع الذين كانوا يعرفونهُ قبلاً ورأوهُ متربعًا في هذا الدست خفي عليهم ان هذا البرنس سكولوف هو الكسس دورسكي مقدام النيهيلست

الفصل الحادي عشر

الشيطانة الجميلة

ثم نهض البرنس سكولوف الى احدى نوافذ غرفته التي تشرف على شارع الكسندر نيوسكي ووقف فيها ينظر الى المركبات السائرة ذهاباً وايابا لاهياً بسماع اصوات اجراسها وجلبة ساقتها وخرير عجلاتها حتى سئمت نفسهُ التطلع فاغلق الشباك سادًّا في وجههِ بقايا النور النافذة من بقية ذلك النهار الذي لم يبقَ من ضياء شمسهِ المتوارية سوى اشعة شفق ضئيلة ورجع الى مجلسهِ يعيد النظر في ما امامهُ من الكتب والرسائل . وبعدما طواها جميعها ووضعها في مكانها الخاصّ جاءلاً رسالة الشيطانة الجميلة في اسفلها بدا لهُ ما بعثهُ على استئناف فضها واذ ذاك وضع رأسهُ بين يديهِ ضاغطاً بهما صدغيهِ وقال : —

— يا عجبا ! من عسى ان تكون هذه المرأة العجيبة ؟ وما هي حقيقة امرها ؟ فلقد امتازت عن جميع وكلاء حكومة روسيا في غموض الحال وخفاء النسبة حتى لا يُعلم عنها شيء . فمن هي ؟ — بل بالحري من كانت ؟ ومن كان او يكون البارون التدروف ؟ عبثاً حاولتُ البحث والتفتيش وباطلاً تكلفتُ استطلاع امرها . ففي كل مكان تقريباً كنا نُعضَد بمساعيها ونسعد بنجاح مشوراتها واما بها فلم نوفَّق بعد الى الاجتماع . على انهُ لا بأس من هذا كلهِ فعلي رغم هذه الخفايا لا ازال اثق بها واتكل عليها واثمنها اكثر من ديمتري كيراتيف كاتم اسراري . وقد جعلنا صندوق ادارتنا تحت امرها مدة خمس سنوات فلو كانت املي دشتون وكيلتي الانكليزية مكانها مثلاً لحمَّلتنا نفقات تفوق المليون اما الشيطانة الجميلة فاعظم بشدة امانتها في الخدمة ونزاهتها في السعي ومهما يكن من الباعث على إخفاء امرها عنا فلا بدَّ انهُ يكون قويًّا وغاية في الاهمية ولا مندوحة لها عن رفع النقاب وكشف الحجاب متى حان الوقت وزالت الاسباب . وقد ذكرت في ذيل رسالتها الاخيرة انها قادمة الينا فمتى تصل ؟ وحق مار نيقولا اني متوقع بل متلهف ان اشاهدها . ثم التفت نحو خفير الادارة الذي دخل الغرفة بعد قرع لطيف على بابها وسمعهُ يقول

— هو ذا سيدة تروم مخاطبة سموكم

ودفع اليهِ رقعة مطبوعاً عليها " الكونتس لاروش في شارع حنة بياريس " وتحت هذا العنوان مكتوب باللغة الروسية " فندق اوربا — افروبكائياً غوستينزا "

— اما اخبرتها ان الادارة أُقفلت ؟

— بلى يا سيدي ولكنها طَلَبَتْ ان انظر هل سموكم هنا

— هل اوضحتْ لك مرادها ؟

— كلاَّ بل قالت انها جاءت الآن من فينا

— من فينا ؟ اه ! اذًا قل لها ان تدخل ومر اثنين من الحراس ان يقفا على جانبي طريقها وقد امر البرنس باجراء هذا الاحتياط لانهُ نُصبت لهُ مكيدة الاغتيال مرتين في هذا المكان عينهِ وبالجهد نجا منهما ولهذا استعدَّ الآن منعاً لمفاجأة ما لم يكن في الحسبان

وبعد نحو دقيقتين دخلت المرأة حتى بلغت الباب فوقفت وقالت : —

— أهنا البرنس سكولوف ؟ فقال نعم ادخلي واجلسي

قال هذا باللغة الروسية فاجابتهُ باللغة نفسها : —

— اراك وضعت حرسك القوزاق تحوُّطاً وكان يجب عليَّ ان اكفيك مشقة هذا التحرُّس باعلان اسمي — البارونة التدورف . على انهُ يهمني ان اكون الكونتس لاروش السائحة لاسباب صحية ولهذا اطلعت الخفير على الاسم الذي ينبغي ان أُعرَّف بهِ ما دمت في بطرسبرج

وكان في كلامها هذا نوع من الابهة وعلو الشأن وهي جالسة على كرسي مقابل البرنس سكولوف اما هو فكان لم يبرح واقفاً حتى اذا فرغت من كلامها اجابها ببساطة : —

— الستِ الشيطانة الجميلة ؟ فقالت بلى انا هي

فسار نحو الباب ونادى "شورسكهو ! اوغون ! اذهبا . ثم رجع وجلس على كرسيهِ وقال : —

— لا حاجة الى اضاعة الوقت بسرد عبارات الشكر والثناء وانما اقول حسبي اني ارى الشيطانة الجميلة وجهاً لوجهٍ . ولكِ ان تشيري الى غرضك من هذه الزيارة بما ترومين من اساليب التعبير ومتى شئتِ

— لقد حان وقت اجتماعنا لأن المفاوضات انتهت في فينا وسترى ان بسمرك واندراسي متفقان منذ البداءة وسيظلاَّن كذلك الى النهاية . اما سياسة انكلترا فقد قُطعت وجفَّت . واذ قد دبروا هم مقاصدهم ترتب علينا نحن ان نبادر ايضاً الى رسم خطة مقاصدنا

— مقاصدنا ؟

— نعم مقاصدك ومقاصدي

— ايها السيدة فوان التدروف اسمحي لي بهذا الطلب وهو ان يقف كلٌّ منا على مراد الآخر من البداءة —

فعارضتهُ مصححةً : —

— أُدعني الكونتس لاروش اذا كنت تريد

— نعم نعم الكونتس لاروش . انت نازلة في فندق اوربا . هل معكِ جواز سفر ؟ لابدَّ من ان يكون معكِ —

— معي خمسة . واخرجت من جيبها رزمة وقالت : —

— هذا هي . انظر . هوذا اثنان منها بتوقيعك . وهذا المعنون باسم الكونتس لاروش أُرّخ واصدر في باريس . وهذا باسم السيدة "دامين" اصدر في لندن . وهذا باسم البارونة التدروف موقَّع منك في برلين . وهذا بالاسم والتوقيع عينهما في فينا . وهذا باسم السيدة "راكزيوتزا" في الاستانة

فاخذت الحيرة من رئيس البوليس كل مأخذ حتى قال لها : —

— صدقيني انكِ في دقيقتين ادهشتني الى حدٍّ لم اعرفهُ من قبلُ فهل تسمحين لي ان أسألكِ عن وطنكِ لانك تتكلمين الروسية بكل ضبطٍ ولكن بلهجة غريبة وهكذا الفرنسوية

— انني شائعة الوطنية . فانا انكليزية وفرنسوية والمانية وروسية . والآن بداعي مقصدنا الحاضر رومانية وفي كل مكان الشيطانة الجميلة ! فهل اتفضح لك امري ؟

— نعم اتفضحت لي ذاتيتكِ . فارجو ان تحسبي ادارة البوليس موقوفة على خدمتكِ وطوع اشارتك . فما وراءكِ من الانباء ؟

— اكثر مما يمكننا ان نخوض عبابهُ الآن . ولكن لي سؤال واحدٌ أُلقيهِ قبلما ينتهي اجتماعنا هذا وهو متى تشهر الحرب ؟

— الحرب ؟

— نعم الحرب — على تركيا

اما سكولوف فقبلما يجيبها على سؤالها انحنى الى الامام وازاح الظل عن المصباح حتى شرقت الغرفة بالنور ثم تفرَّس في وجهها وتفحصها بعين نقَّادة ولما لم يوجس فيها اقلَّ ارتياب قال : —

— متى رفض الباب العالي الشروط المطروحة لدى المؤتمر

— ليس في طبيعة تلك الشروط ما يحمل الباب العالي على القبول

— هكذا أرى

— حسنٌ ! فحسبنا الآن . وغدًا أُطلعكَ على رأيي في هذا الامر . هكذا اتفقنا ؟

— كل الاتفاق

ثم انصرفت ورجع البرنس الى تأملاتهِ الانفرادية متفكرًا متبصرًا

الفصل الثاني عشر

مرقب سياسي

وفي عصر اليوم التالي خلا البرنس سكولوف بالبارونة التدروف يأتمران فاستهلت الكلام وقالت : —

— مما اعلمهُ ان الشروط المقترحة على مجلس شورى الدولة العثمانية يستحيل قبولها وعند ما يتمُّ هذا وتقيم الدول الحجة تجتاز جيوش روسيا نهر البرت وتدخل اسيا على طريق باطوم او القارص بلا تاخر

— نعم

— اية مقاومة نلقى ؟

— في اوربا نلقى بعض المقاومة وقد لا نلقى شيئاً لان رومانيا تتحد معنا ويرجح ان بلغاريا تنضمُّ الينا اما في اسيا فقد نجد بعض الصعوبة من مقاومة مختار باشا

— واين ننشئُ مرقبنا السياسي ؟

— في اودسا

— هذا خطأٌ لانهُ يكون بعيداً جداً عن الاستانة

— وهل عند الشيطانة الجميلة مكان افضل منهُ ؟

— نعم عندها والاَّ لم تأتِ الى هنا . اسمح لي بخريطة البلاد

فجاءها بالخريطة ووضعها امامها على مائدةٍ واخذا كلاهما ينظران فيها وطفقت تشير باصبعها وتتكلم بسرعةٍ وتأكيد كمن يقرّر شيئاً يعلمهُ حق العلم ومما قالتهُ : —

— بعد ما تشهر الحرب وقبلما تبلغ الدانوب تُسَدُّ في وجوهنا حالاً جهة المسير الى الاستانة عن طريق وارنا ويقام الحصار على موانئ البحر الاسود كلها ويتعذَّر المسير في اية فرضةٍ بحرية كانت . والخطُّ الوحيد الذي يبقى لاتصال المفاوضة بين الدول والباب العالي انما يكون من جهة البلقان على طريق مضيق شيبكا . ولكي يبلغ الرسل هذه النقطة يترتب عليهم المرور ببلغراد وودن وقد يمرُّون ببلاقنا ايضاً . ومن شيبكا يلزمهم ان يأتوا الاستانة على طريق اسكي زهره وادريانوبل وبين هذين المكانين قرية دوه كوي . ففي هذه القرية تقيم السيدة راكزيوتزا الروملية مرقبها على الفور وعند اجتياز عساكرنا نهر البرت تكون هي قد رتَّبت مقامها هناك ويكون ممو البرنس سكولوف دائماً ضيفاً مكرماً ونزيلاً مأهولاً بهِ عندها

ولما فرغت من كلامها رفعت نظرها الى وجههِ لتقرأ فيهِ تأثير كلماتها فقال : —

— اذاً من رأيك

— ان اقيم مرقباً سياسياً بعيداً عن المدن الكبيرة والمراكز الحربية — مرقباً على الطريق الوحيدة بين اور با والاستانة

لكنَّ اشغالي الآن تدعوني الى بار يس ولندن فلا اقدر ان اكون في المكان الذي تشيرين اليهِ

— لكني انا اقدر وفي عزمي ان اكون هناك بعد شهر

— وهل تستطيعين ان تعلمي بالتحقيق ماذا تكون حالة بلغار يا في اثناء هذه الحرب؟ الا توجسين فيها خطراً؟

فقلبت شفتها باستخفاف وقالت: وهل تظن ان المرأة التي عاشت عيشة الشيطانة الجميلة تنكص عن الاقدام على سفر في بلاد مشهورة في الميل الى روسيا؟ واذا سألت في فيلبي وصوفية عن السيدة راكزيوتزا رأيت ما يقنعك بانهُ لا خوف عليَّ في البلقان

فقضى البرنس سكولوف بضع دقائق صامتاً وعيناهُ شاخصتان فيها ثم قال لها: —

— ايها البارونة . اراني في غنى عن طلب بينة على ما انتِ فيهِ وعليكِ لوائح الرغبة في تأييدهِ بالحجج القاطعة . ولكن من الواضح الجلي انهُ لا بد من حادث مخيف طما سيلهُ الجارف عليكِ واضطركِ ان تغوصي في لجج المكايد السياسية الزاخرة وتقتحمي زوابعها الثائرة وتجوبي مسالكها المتعادية ومسافاتها المترامية

— نعم انهُ حادث مخيف الى الغاية وكارث جهلتُ نتائج بداءتهِ فلم اعد اعرف لها نهاية . ولقد نزع مني هولهُ كل عواطف الاناث وجرَّدني من شعور النساء وغادر في حليفة الهياج والزيغ والالتواء . وحينما اغنيل ديمتري كيراتيف بايدي عصابة الكسس دورسكي وخلفتهُ انت باجماع الامة قضيتُ نحو شهرٍ اترقَّب اعمالك واتدبَّر طرقك بعين التفحص والامعان حتى تحققت ان رئاسة البوليس في ايامك لا تكون وظيفة تنفق عليها الرواتب الفاحشة بلا فائدة . فكتبت اليك وانت ندبتني الى عملي الاول وعلى الفور نبذتُ عني اثوبتي — وبكلمة اقول — صرت الشيطانة الجميلة

— كنت اودُّ ايها البارونة لو انَّا اجتمعنا قبل الآن لانهُ لا يستحيل على من كان مثلي ادراك ما تسوَّلهُ لهُ نفسهُ من الشهرة والرفعة بمساعدة شريكة نظيرك

— فارسلت اليهِ نظرة الحذر واستأنفت لهجتها الرزينة التي كانت مطبوعة عليها وقالت

— سيان عندي اجتمعنا الآن او قبل وقت طويل لاني لست على شيء سوى البغض وحب الانتقام واظنك ادركت مرامي ولم تبقَ من حاجة الى الكلام

ثم تغيرت جهة الحديث بينهما . وبعد اسبوعين اتفقا على انشاء المرقب السياسي فقضيا مدة في الاعتزال والانفراد يتباحثان في المسائل المهمة حتى اذا فرغا من التداول في كل شأن خطير قامت تتأهب لمزايلة بطرس برج واخذ هو يستعد للشخوص الى لندن عن طريق باريس وفي اجتماعهما الاخير قالت لهُ : انتهى كل شيء . فقال تقريباً — فقالت — كيف تقريباً ؟ فهل عندك شيء آخر ؟ فقال — نعم اعيريني سمعك بضع دقائق ايها البارونة فان ما بقي عندي من الكلام ليس بقليل الاهمية

ثم اطرق هنيهة كأنهُ يجهد نفسهُ في استحضار الالفاظ المناسبة للتعبير عن مرادهِ وعاد يستأنف الخطاب : —

— انكِ لم تسفري لي اللثام ايها البارونة عن محيًّا وطنيتك . ومن جهتي لست في حاجة الى ذلك وما اعلمهُ هو انكِ عادمة المثال كما انكِ بعيدة الاستقصاء ومهما يكن من امر ولادتك المجهولة ونشأتكِ الخفية فانت حرية جدًّا بان تشرّفي كل اسم تتنازلين الى اتخاذهِ ومما لا يخفى عليكِ ان اسرة سكولوف ليس لها ثانٍ في روسيا . وقبل عهد تاريخنا كانت مجارية لاسرة رومانوف ودولغوروكس وكرستوف في سمو الشأن وعلو المكانة . فهذا الاسم او اللقب (سكولوف) اعرضهُ عليك بكل خشوع . فهل تريدين ان تكوني زوجةً لي ؟

— ايها البرنس اني آسفة من اعماق نفسي وصميم فؤادي على رفض تشريفك اياي بما عرضتهُ عليَّ لاني لا استطيع ابدًا ان اكون لك اكثر مما انا الآن . لا اجهل اني في حوزتك وقد اوضحت لك اني اريد ان ازيد سلطتك عليَّ بلا خوفٍ ولا حذرٍ ولكن لا يمكنني على الاطلاق ان اكون لك اكثر من مكاتبة . فلننسَ هذا المنظر ولنعُدْ الى مقامنا الاول من حيث سياستنا اذ يستحيل عليَّ ان اكون زوجة لك

فعلا وجه سكولوف انقباض شديد دلَّ عليهِ تقطيب جبهتهِ لكنهُ تغلب على نفسهِ وقال

— لا بدَّ انكِ تعيدين يوماً النظر في هذا الامر وسأترك لكِ حرية ابلاغي متى جاء ذلك اليوم . اما الآن فليس لي ان اقول سوى انني باقٍ — والى الابد — عبدًا لكِ مطيعاً . وهذا كل ما كان ينبغي ايرادهُ . فاستودعكِ الله على رجاء الاجتماع في بداءة العام المقبل في مرقبنا السياسي

الفصل الثالث عشر

لجنة طرائق ووسائل

— خلي عنكِ يا شقيقتي هذا المراء ولا تكوني طائشة رعناء وايُّ شيطان وسوس لكِ اني انا الذي ليس لي في الافلاس شبيه اقوى على اعداد عشرة آلاف جنيه

— وانتَ خلِّ عنك القساوة والشكاسة ولا تعاملني بشراسة تفوق كل شراسة. ثم أخذ الماجور هومر كرتر والسيدة املي دشتون ينظران احدهما الى الآخر كأنَّ كلاً منهما يحاول الاطلاع على خفايا الغيب من جبين الآخر . اما هي فاستأنفت كلامها : —

— اعلم انهُ اذا لم يحصل اللورد ارلنفورد يوم الاثنين على هذا المبلغ عشرة آلاف جنيه فلا بدَّ انهُ يفلس وافلاسهُ يسبب خراب شركة المعادن التي لشدة طمعك في الارباح العائدة اليك من وكالتها استقلت من منصبك العسكري في بنغالا وجئت الى هنا (لندن) وحملتني على اللحوق بك لأساعدك على ترويج مصالحها واغراء الاغنياء بالاشتراك في اسهمها حتى راجت هذا الرواج العظيم

— ولكن عليهِ من ١٥ الى ٢٠ الف جنيه ديناً وقد اخذت اللجنة تنظر في تصفية حساباتهِ

— وماذا اذا كان عليهِ هذا المقدار؟ اما هو قائم بدفع الربا المفروض عليهِ ؟ او نسيت مساعيهُ الحميدة التي بذلها في انجاح اعمال الشركة وتكثير عدد المشتركين . وبواسطتهِ يسهل عليك السعي في اقتناص بركز الاميركي صاحب الملايين وحملهِ على الاشتراك وسيتناول العشاء عندهُ هذه الليلة ويكون من جملة المدعوين . لوداع غوّدارد

— غودّارد ؟

— او تجهل هذا الانسان الذائع الصيت قائد فرقة العشرين من الفرسان ورسول الملكة الخاص — اشهر رجل في لندن ؟ فقال لم القهُ قط فقالت

— نعم لانهُ ليس من اهل الثروة فلم يقع في اشراك اللجنة المنصوبة لاقتناص الاغنياء

— ارجو ان توصدي فاكِ وتُقلعي عن هذا التحذلق فلقد تجاوزتِ فيهِ حدود الاعتدال

— أتحسبني متجاوزة حدود الاعتدال ومطلوبي عشرة آلاف جنيه ؟

— او عندي هذا المبلغ ؟ ام تظنين اني قادر على تحصيلهِ ؟

— اذاً ما العمل ؟ فقد ضاقت بي الحيل

— ألا تقدرين ان تقترضيهِ من سكولوف ؟ ان الامراء الروسيين هم في الغالب من كبار الاغنياء

— لا ريب في ان سكولوف يقدر ان يقرضني اياهُ ولكن بشرط ان اخدمهُ في ما تساوي فائدتهُ هذه القيمة . وبالامس قال لي ان عندهُ شيئاً يروم مني قضاءهُ لكنني لا استطيع ان اعمل لهُ في ثلثة ايام ما استحق عليهِ عشرة آلاف جنيه

— ولكن عليكِ ان تبذلي جهدكِ فانظري ماذا يريد

— لا بد من السعي في الاجتماع بهِ هذه الليلة . على ان الرجاء ضعيف ثم عقب كلامها سكوت استحوذ عليهما كليهما برهةً وجيزة . فقال الماجور : —

— اليكِ يا أُخيَّة عن هذا الصمت واطلعيني على ما عندكِ من الآراء والتدابير

— عندي انك تخرج الآن الى المدينة وتنقب في اعماق الارض واعالي السماء مفتشاً باحثاً لعلك توفق الى الحصول على مطلوبي . وساكتب الى سكولوف ادعوهُ الى هنا وعليك انت ان تكتب الى السيدة ارلنفورد وتخبرها بانك تأخرت لعروض بعض الموانع وسوف تحضر بعد العشاء ثم اكتب انا اليها واخبرها باني منحرفة الصحة لكني ابذل جهدي في الحضور . والساعة التاسعة اجتمع بك في بيت ارلنفورد وهناك يقصُّ كل منا على الآخر نتيجة مساعيهِ لكني كما سبقت وقلت اقول الآن ان رجائي ضعيف فقال وانا كذلك ولكن سأبذل جهدي

ثم نهض واخذ قبعتهُ وخرج وقامت هي الى مكتبتها وكتبت بضعة اسطر ودعت الخادم ودفعت اليهِ الكتاب وقالت : —

— خذ هذا الى سفارة روسيا وانتظر الجواب

وبعد خروجهِ رجعت الى قرب النار تصطلي

وكانت هذه السيدة املي دشتون — ارملة بردلي دشتون — آية في الحسن والجمال حتى ان سكنى الهند ورداءة هوائها وشدة حرارة شمس بنغالا لم تخدش وضاءة سحنتها ولا ذهبت بشيء من بهاء محاسنها . وهذا ما جعل اللورد ارلنفورد يهيم بها عند ما ذهب الى الهند متصيداً منذ سنتين فاغراها بهجر بنغالا والرجوع الى لندن غير مبالٍ بوجود زوجتهِ فيها فعللت املي دشتون نفسها بوعد اللورد المذكور بالاقتران بها وجاءت الى انكلترا . وبناءً على هذا الامل نراها الآن مهتمة بتفريج ضيقهِ المالي . ورأيناها في مطلع هذا الفصل تباحث اخاها الماجور كرتر في شأنهِ وتستحثهُ على السعي في اعداد هذا المبلغ سداً لخرق صاحبها وتلافياً لخطر افلاسهِ . ولاجل هذا ايضاً ارسلت تدعو البرنس سكولوف الذي عملت على مصادقتهِ منذ رجوعها الى انكلترا فاجابها على كتابها الذي ارسلتهُ اليهِ مع الخادم انهُ قادم لزيارتها فسرَّت عنها في الحال وقامت تتناول شيئاً من الطعام وهي تبشّر نفسها بادراك المرام

الفصل الرابع عشر

مهمة سياسية

وفي الساعة الثالثة بعد الظهر جلست السيدة املي دشتون في كرسيها الهزاز امام النار تنتظر قدوم البرنس سكولوف بقلق زائد وصبر ذاهب ولم تخلُ ظواهر وجهها من لوائح هذا الاهتمام. لان الحصول على عشرة آلاف جنيه لم يكن امرًا سهلاً. على ان رجاء نيل هذا المبلغ اصبح الان اشدَّ منهُ قبل الظهر لان سرعة جواب البرنس سكولوف وتلبيتهُ دعوتها بشرتاها بأن عندهُ شيئًا مهمًّا يروم انتدابها لهُ ويودُّ ان يفوض اليها امر قضائهِ. ولا يخفى ان مهمات هذا البرنس وان كانت محفوفة بالاخطار والعراقيل كان لمن يقضيها أجرة تملأ الجيوب وتسر القلوب

وما صارت الساعة الثالثة حتى سمعت قرعًا على باب دارها ثم عقبهُ دخول البرنس سكولوف فلم تنهض لاستقبالهِ بل اقتصرت على مد يدها اليهِ فانحنى لتقبيلها بمزيد الاحترام وافتتح الكلام:

— كيف حال صديقتي الجميلة

— اني في قلق لا مزيد عليهِ واروم قضاء شيء — شيء مهمّ الى الغاية ولاجلهِ دعوتك الآن

— هكذا ظننت. فما هو المبلغ الذي تحتاجين اليهِ؟

— عشرة آلاف جنيه

— عجبًا؟ أهذا كل مطلوبك؟

— نعم في الوقت الحاضر فهل يمكنني الحصول على هذا المبلغ؟

— هكذا ارجو. وهو متوقف عليكِ؟

— مرادك ان عندك شيئًا تروم مني قضاءهُ وهذا المبلغ يكون اجرتي او جزاء سعيي فيهِ. ولكني اروم الحصول على المال يوم الاثنين

— ان فعلتِ ما اريد — ففي الساعة الاولى بعد نصف الليل آتي اليكِ واعطيكِ المطلوب اوراقًا مالية او ذهبًا عينًا كما تريدين

— خلِ عنك المزاح يا سكولوف فليس لي عليهِ الآن طاقة. اني في اشد الاحتياج الى المبلغ المذكور

— لستُ مازحًا بل بجدٍّ اتكلم. وقد بلغني ان اللورد ارلنفورد في حاجة الى عشرة الاف جنيه ويأمل انكِ تجدينها لهُ

— أجدها ؟ انها مبلغ فاحش

— نعم مبلغ فاحش — اعظم مبلغ دفعتهُ جزاء خدمة واحدة

— اظنك تروم مني قضاء شيء مستحيل

— ليس شيء مستحيلاً على سيدة جميلة حاذقة نظيركِ

فرفعت نظرها اليهِ وتفرست فيهِ مليًّا وهي تحدث نفسها وتعللها بادراك المنى وتسهل عليها العقبات التي توقعت عروضها في طريق العمل الذي عزمت على مباشرتهِ طمعاً في نيل الجائزة ثم سألت البرنس : — ماذا تروم مني ؟

فاجابها بكل رصانة : — ايتها السيدة . اني عالم يقيناً انهُ ليس من امرأة انكليزية تستطيع مجاراتكِ في السعي بحزم ودراية . وكثيراً ما خدمتني في ما يسمى حوادث سياسية ولم استخدمك قط في مانطلق عليهِ اسم عراقيل سياسية . اما الان فني عزمي ان ادعوك الى مهمة أعلى شأناً واجلّ اعتباراً مما اقدمت عليهِ في الماضي

فسالتهُ مرتابة : — لماذا لاتدعو اليها الشيطانة الجميلة

— فقال لان البارونة التدورف الان في تركيا لاسباب صحية

— لا بأس . اطلعني على مرادك فسأقدم على قضائهِ كيف كان

— لاريب عندي في انك تقدرين ان اردتِ . لكنهُ شيء اعظم من سرقة رسالة او سلب اقرار ؟ اعيريني سمعك ؟ فانتِ مدعوة هذا المساء لتناول الطعام عند اللورد ارلنفورد لوداع القائد او بين غودارد وهو سيزايل لندن في قطار الليل المخصوص على طريق دوفر الى فينا ومن ثم الى الاستانة فينبغي ان لا يذهب

— ماذا ؟

— يجب ان يعاق عن السفر

— ومن ذا يعوقهُ ؟

— انتِ

— انا ؟

— نعم

— ابجدٍ تطلب هذا ؟

— او بجدٍ تطلبين مني عشرة آلاف جنيه ؟

— اتعرف او بين غودارد ؟

— اسمع بهِ

— وكيف تتوقع عاقتهُ عن القيام بخدمتهِ ؟

— لو عرفت كيف يتمُّ ذلك لكفيت نفسي مؤونة دفع هذا المبلغ ؟

— اذًا الاولى بي ان أيأس من نيلهِ . فان ما ترومهُ مستحيل . وغير خافٍ عليك ان القائد المذكور سيكون مخفورًا بالحراس من حين خروجهِ من بيت ارلنفورد حتى دخولهِ القطار فكيف يمكن توقيفهُ

— لا يمكن ولا انا بطالب ذلك — بل أُريد عاقتهُ الى صباح الغد فقط . لانهُ يهمني تأخير رسائلهِ بضع ساعات . فلسنا في شيء من امر الحراس لان موضوعنا عدم انطلاقهِ في الوقت المعين ليس الاَّ

— اذًا ترومني منعهُ وحملهُ على البقاء في لندن ؟

— انتِ تعرفينهُ من يوم كنتِ في الهند اليس كذلك ؟

— بلى ولكن كان ذلك من عهد طويل . اما الان فليس لي عليهِ سلطة . فاجابها ناظرًا الى ساعتهِ : — ينبغي ان اذهب ومن الآن الى نصف الليل يتسنَّى لامرأة نظيركِ ان تقلب مملكة . فراجعي المسألة ورددیها في ذهنكِ وقلبي نظركِ في جميع اطرافها . والساعة العاشرة اكون في بيت ارلنفورد والساعة الحادية عشرة تنصبين مكيدتكِ ايًّا كانت . وعند نصف الليل ينبغي ان يسير قطار البريد بلا رسول المملكة كما ارجو . والساعة الاولى بعد نصف الليل انتظرك لكي ادفع المبلغ المطلوب . فالى اللقاء — عن قريب

وقبلما تمكنت من النطق بكلمة واحدة خرج البرنس ودوت بهِ مركبتهُ في الشارع فرجعت الى كرسيها واستلقت عليهِ بلا حراكٍ وعيناها شاخصتان في الحائط مقابلها

الفصل الخامس عشر

القائد او بين غودارد

وفي الساعة الثامنة كانت السيدة دشتون في غرفة الاستقبال في بيت اللورد ارلنفورد مقابل النار فدعت اليها الخادم وسألتهُ : — اما انتهى امر العشاء بعد ؟

— كلاَّ يا سيدتي فقد تأخر هذا المساء

— عندما يأتي شقيقي كرتر دعهُ يدخل الى هنا

– "طيب حاضر"

وبعد بضع دقائق جاء اخوها فسألتهُ بلهفةٍ : — لقد ابطأت كثيرًا حتى أشفقتُ انك تتأخر الى ما بعد العشاء . فقل لي ما وراءك ؟ هل نجحت مساعيك ؟

— بكل اسفٍ اقول لكِ انهُ تعذر عليَّ الحصول على المطلوب

— فماذا تفعل ؟

— لا اعلم . لم يبقَ عليكِ سوى سكولوف فقد اجتمعت بهِ قبيل العصر ومن حديثهِ علمت انهُ يحتاج اليكِ في قضاء مهمة ذات شأن واظنكِ شاهدتهِ

— نعم شاهدتهُ

— هل يقدر ان يساعدنا

— نعم اِن —

— هه ! إن ! إن ! يا للداهية . كأنهُ لا بدَّ من " إن " فبلا ريبٍ تقدرين على امتثال ارادتهِ ويجب ان تمتثلي . فماذ يريد ؟

— انَّ القائد اوبين غودارد يبرح لندن هذه الليلة الى فينا مصحوبًا برسائل

— نعم وما ذا يهمنا سفرهُ ؟

– سكولوف يروم عاقتهُ عن السفر ! هذه هي المهمة .

— لقد ازعجني امر هذا القائد

— اظنهُ محبًا قديمًا لالس ارلنفورد ولذلك يهمك امرهُ كثيرًا

حقًا ! ولماذا ؟

— لانك انضيتَ مطايا جهدك في استمالة السيدة ارلنفورد اليك فاخفق مسعاك ولم تفلح ولن تفلح . وقد مهدتَ لنفسك سبيل الدخول الى بيتها بان افرضت زوجها مالاً كثيرًا وهوذا أنتَ الآن في بيتها فماذا انتفعتَ ؟

— ارى في كلامكِ شيئًا من الاستخفاف بي فلماذا ؟

لاني لا ارى منك نفعًا يبعثني على ملاطفتك واحترامك

— يالها من حجة قاطعة ! ولكن الا توجسين — ؟

ثم دخل الخادم واعترض ثمة كلامهِ بقولهِ لهُ ان اللورد ارلنفورد يدعوهُ الى العشاء . فخرج على الاثر . وبعد خروجهِ سألت الخادم : — من هنا

فقال مستر سنسناتوس الاميركي وتشارلس مدلتون واختهُ

— وماذا دعا الى تأخير العشاء الى الآن

— انتظار ضيف آخر — من هو

— القائد غودارد !

وهذه الجملة نطق بها خادم آخر دخل يعلن قدوم القائد المنتظر الذي تبعهُ على الاثر ودخل لكنهُ لم ينظر السيدة دشتون فالتفت اليهِ الخادم الذي كان يخاطبها وقال لهُ انهم لايزالون ينتظرون قدومكم لتناول العشاء فاجابهُ غودارد : —

— قل لهم اني انتظرهم هنا

— وانا اكون رفيقتك في الانتظار!

قالت السيدة دشتون هذا ونهضت مقبلةً اليهِ مادَّة يدها واذ نظرها ناداها بزيد العجب والاستغراب

— اهلاً بداشي (ترخيم دشتون) كيف حالكِ ؟ يالكِ من ساحرة فتانة .

— صه ! لسنا الآن في الهند . اذكر انهُ مضى على اجتماعنا في هاتيك الاطراف اكثر من سبع سنوات افهمت مرادي ايها القائد غودارد؟

— نعم ايها السيدة دشتون . ولكن مالي اراكِ هنا ؟

— جئتُ زائرةً

— بدعوة مَن ؟

— ماذا يعنيك ؟

— انَّ لي بذا مأرباً يتوقف —

— على مَن ؟

— عليكِ

— او ليس عليك انتَ

— وعليَّ ايضاً

هذا كلهُ تمَّ بسرعةٍ تضاهي البرق وعقبهُ سكوتٌ فضتهُ السيدة دشتون بالتفرُّس في وجه غودارد ثم قالت لهُ : —

— وماذا تروم معرفتهُ الآن ؟

— اظنك لا تحبين السيدة ارلنفورد بقدر ما تحبين زوجها اليس كذلك ؟

فنهضت على قدم الغيظ والحنق وقالت : —

— لم يعد يمكنني الصبر على هذه الاسئلة . فقل لي صريحاً ماذا يدعوك الى هذا التعريض

— اصغي اليَّ يا داشي . انهُ من الخشونة جرح احساسات امرأة . ويشقُّ عليَّ التعريض بك والتضييق عليكِ . ولكن السيدة ارلنفورد نسيبتي فلا ارى لكِ من حقٍّ في هذا التصرُّف وانتِ هنا في بيتها . واخاف ان تضطرين بسلوككِ هذا الى تنبيهها وحينئذٍ يرجَّح أنها

— تفعل حسب ما يأمرها زوجها — شأن النساء المطيعات — ولكن دعنا من هذا ولننسَ ما حدث متسامحين . واعلم اني لستُ بمطيلةٍ اقامتي هنا وسأزايل لندن في اقل من شهر . فلا حاجة لك الى القلق والخوف على السيدة ارلنفورد . وليس بخافٍ عليك انهُ يهمني ان اعيش برغدٍ وصفاء على رغم الموانع التي تحول دون تحقق هذه الامنية . وماذا ان أبت نسيبتك مجيئي الى بيتها وكان زوجها يريد ذلك . على ان اقامتي في لندن قصيرة وبعد رجوعي اليها سأعدُّ فيها منزلاً فاخراً يزورني فيهِ اصدقائي الاخصاء

— وهل يهتمون بك كثيراً ؟

— الى الغاية فان احدهم البرنس سكولوف مثلاً حريص جدًّا على اكرامي واحترامي ولذا تجد يخنهُ واماكنهُ الخاصَّة في الملاعب والمراقص والمصايف والمتنزَّهات موقوفة على اشارتي . وتراهُ دائماً في الاجتماع بي هنا في بيت اللورد ارلنفورد بعد ما يفرغ من اعمالهِ الرسمية . و —

ثم اعترض ثمة كلامها دخول السيدة ارلنفورد ومعها ابنة اسمها كتي مدلتون . فلما وقع نظرها على السيدة دشتون حيتها ببرودة وردَّت هذه تحيتها بمثلها . ثم التفتت الى غودارد وقالت : —

اني مسرورة جدًّا برؤيتك ! كأنَّك غائبٌ منذ وقتٍ طويل . واظنك تعرف كتي مدلتون والسيدة املي دشتون —

فاعترضتها املي وقالت : عرفتهُ من قبل والآن كنَّا نجدِّد عهد الود القديم

فالتفت غودارد الى كتي مدلتون وكانت قد وقفت شاخصةً اليهِ وقال : —

— تعالي يا كتي وقبلي صديقكِ .

فتقدمت اليهِ وقبَّلتهُ فقالت لها السيدة ارلنفورد : —

— يجب ان تلزمي جانب الرصانة يا كتي قدام الغرباء

فاجابتها ويداها لاتزالان حول عنق غودارد : —

— ان السيدة دشتون لاتروعها قبلة

فقالت هذه وقد كدَّرها هذا المشهد : —

— لاتزالين يا كتي على عهد طيشكِ القديم

فاجابتها كتي : — خلي عنك التوبيخ وحدثيني عن اخطار البرنس سكولوف وجرائمهِ لاني أُمرُ بذكر كل ذي اسمٍ رومي . فقصي عليَّ كم اغتال من النفوس واجترح من المحارم

فقالت السيدة ارلنفورد من باب المزاح : — لو سمعكِ البرنس سكولوف لنفاكِ في الحال الى سيبيريا

فسأل غودارد : — من هذا الرومي ؟

— البرنس سكولوف المعتمد الرومي لا شك انك تعرفهُ

— اعرف عنهُ انهُ ساقط المبادىء من كل وجهٍ — عنيد لا يقهر ومستبدٌ لا يُقيَّد . وبالاجمال يقال انهُ سياسي ذاعت شهرة نجاحهِ في مساعيهِ لانهُ خالٍ من عواطف الحنو والشفقة . ولقد سمعتكِ تذكرين لهُ شريكةً تلقبينها بالظافرة فمن هي ؟

— الشيطانة الجميلة

— ومن هي الشيطانة الجميلة ؟

فقالت كتي : — حدثينا ايها السيدة دشتون عن الشيطانة الجميلة

ثم جذبتها الى غرفة البلياردو المفصولة عن غرفة الجلوس بستار كثيف . ولما خلت السيدة ارلنفورد بغودارد قالت لهُ : —

— كم رأيت الوقت طويلاً منذ ما ذهبت الى الهند

— وهل تذكرين يوم سفري ؟ لم يخطر ببالي اني ارجع وأراكِ ناسيةً صديقكِ الاول

— كيف عرفتَ ؟

— كيف عرفتُ اني صديقكِ الاول ؟ لانكِ كنتِ ابنة ثلاث سنين حين اجتمعنا اول مرة

— وكيف عرفت اني نسيتُ ؟ سمعت الجنرال سافيل يشير الى ترقيتك فهل هذا صحيح ؟

— لا يخلو الامر من الصحة لاني اتوقَّع ذلك والجنرال سافيل يميل اليَّ كثيراً ولهُ كلمة مسموعة في الدوائر العليا

— ولعلَّ معرفتك للغات الشرقية تعضد السعي في ترقيتك

— نعم ولكن الى درجة محدودة . واذا ساعدتني التقادير فلا بدَّ من نيل مبتغاي . وانا في هذه الليلة مدعوٌّ الى الخروج في رسالةٍ مهمة ومن ورائها انتظر ادراك ما ارجيهِ

— وعلى كلٍّ يشق عليَّ ان اراك ذاهباً الى افغانستان

— لانكِ لا تشعرين بشدة مللي من منصبي الحالي . لاني لست الآن سوى حامل بريد

— ولكنك معدود رسول جلالة الملكة وما هذا بقليل

— كلاهما واحد . فانا احمل رسائل وكذا يفعل حامل البريد . يسعى كثيرًا ويؤجر قليلاً . وقد عرَض لي مؤخرًا حادث شُغلت بهِ كثيرًا وعزمت على تأثرهِ الى النهاية

— ماذا عسى ان يكون ؟

— عندما كنت في فينا في شهر اوغسطس الماضي ذهبت الى حفلة تنكُّر واذ لم ارَ فيها ما يسرني عزمت على الانصراف واذا بامرأةٍ كنت ازاقبها من قبلُ اسرعت الى الاستغاثة بي من رجل كان يطاردها وطلبت مني ان اسير في حمايتها الى مركبتها . وقد ابدت هذا كلهُ بصوتٍ لطيف لا يشفُّ عن شيءٍ يستدعي الارتياب والحذر من امرها . وبعد ما اوصلتها الى مركبتها صعدت اليها ودعتني الى تناول الطعام في منزل عينتهُ لي على رقعةٍ باسمها بشرط ان اكتم امرها ولا اسأل احدًا عنها وحينما فارقتني ابدت شكرها لي ودعتني باسمي "القائد اوبين غودارد"

— اذًا عرفتك ! فمن كانت ؟

— بقيت الى هذا الوقت لا اعلم عنها شيئًا . وعندما قرأت اسمها على الرقعة التي اعطتني اياها وهو "البارونة التدورف" كان السائق قد توارى بها عن النظر

— حقًّا ان قصتك هذه عجيبة . وهل ذهبت الى تناول الطعام عندها ؟

— نعم وقد وجدت المكان المعين غاية في الترتيب والاتقان ولما استقبلتني فيهِ رأيتها في هيئة ساحرة ومن حديثها معي خُيل لي اني اعرفها من عهد طويل

— صِف لي ملامحها . هل كانت جميلة جدًّا ؟

— لا اعلم

— كيف لا تعلم ؟

— لا اعلم هل كانت وفق شروط الجمال . وعندي انهُ يتعذر وصفها على من يراها

— لله درُّك فقد وصفتها من حيث ادعيت بعدم استطاعتك لذلك

— اراكِ تشيرين بهذا الى شيءٍ من غباوتي

— ليس في المحبة شيءٌ من الغباوة في عيني

— المحبة ؟

— نعم المحبة

ثم استولى عليهما سكوتٌ تامٌّ

الفصل السادس عشر

الهيئة الاجتماعية

ثم اعترض سكوتهما صوت صبيٍّ صارخ من خارج : —

— اهلاً بغودارد ! متى رجعت ؟ سمعتُ رئيسي يقول انك ذاهب الى افغانستان . فهل ذلك صحيح ؟ اودُّ الذهاب معك

وكان هذا الصارخ تشارلس مدلتون شقيق كتي فلما دخل اجابهُ غودارد :

— ارجو ان يكون ما سمعتهُ صحيحاً هل في عزمك الدخول في الخدمة العسكرية

— كلاَّ فانَّ والدتي تبكي كلما ذُكِرَت هذه الكلمة " العسكرية " على مسمعها ويشقُّ عليَّ ان اسبب لها ما يبكيها . اين شقيقتي الرعناء . لا تحضر الاَّ عندما لا تمسُّ حاجة اليها . كنتُ بالامس اكلم السيدة دشتون وعندي انها جميلة جدًّا أليس كذلك ؟ اما توفَّقتَ بعد الى الحصول على زوج ؟

— ارفق بها يا تشارلس ولا تضيق عليها بهذا المقدار

— هكذا ينبغي وارى كثيرين يتجاملون عليها . انها امرأة يصعب إدراك دخيلة امرها اما انا فقد عرفتُ خلها وخمرها

قال هذا بمنتهى السذاجة والبساطة لانهُ كان حدثًا غير متجاوز سبعة عشر ربيعاً . فنادتهُ اختهُ من داخل غرفة البليار دو : —

— هلمَّ يا تشارلس الى مليكة قلبك

ثم نادت السيدة دشتون على مسمع اخيها قائلةً والضحك ملء فيها

— تعالي يا ملكة نيسان الى عزيز امهِ

فوثب تشارلس بحدة الغيظ وعدا وراء اختهِ وخرجا كلاهما خارج الغرفة فاستأنفت السيدة ارلنفورد كلامها مع غودارد قائلةً : —

— ما أحلى هذه الفتاة على رغم سلاطة لسانها وكثرة عبثها ومزاحها . حقًّا انهُ يشقُّ عليَّ فراقها

— أصحيح انها ستزَفُّ الى دك سافيل

— نعم فأعاني بعدها وحشة لا مزيد عليها لانها موضوع تسليتي في معظم همومي . وستكون حياتي بعدها مرَّةً جدًّا

— مُرَّةً ؟

— أعني — أعني — انهُ يصعب عليَّ الظفر بصديقة غيرها لاني قليلة المداخلة : —

وكان غودارد يرقبها في اثناء كلامها بعين التأمل والامعان فيرى لون وجهها يروح ويجيء وهي تجهد نفسها في إخفاء امرها وكتم ما تعاني من الألم الشديد فاعترض كلامها وقال : —

— يا الس ما المراد بهذا كلهِ ؟ انكِ لستِ كما كنتِ في سابق عهدكِ . فلقد كنا في زمن الحداثة صبيًّا وبنتًا وقضينا وقتًا طويلاً في صداقةٍ نقية طاهرة . وتلك الصداقة باقية فلا تستطيع الايام ان تمحو صورتها الجميلة وذكرها الحسن . ومحبتي لك تُعلن لي اكثر مما اسمعهُ عنكِ وقد لزمتُ جانب الصمت وقتًا كافيًا — اطول مما استطيع الاحتمال — ولا يخفى عليك انهُ بلغتني اخبار ملتبسة متضاربة ولم أُبالِ بها اعتمادًا على انكِ سوف تطلعينني على كل ما يهمني ان اعرفهُ عنكِ . فقولي لي ما هي همومك ؟

— همومي ؟ خلِّ عنك الانذار بالخطر

— هذا ليس بجواب . انظري يا الس اني منطلق الليلة ولعلي ابقى غائبًا اشهرًا . ومن الضروري ان اعرف كل شيء قبل سفري فليكن الكلام فيها بيننا الآن على ما يمكن من الوضوح والبيان ولا فائدة من تجاهلك وادِّعائك عدم الاحاطة بما يقولهُ الناس عن ارلنفورد . نعم ان العالم ليس دائمًا — او غالبًا — مصيبًا ولكن ما الداعي الى وجود السيدة دشتون هنا ؟ ولِمَ تسمحين لها بالمجيء الى بيتكِ ؟

— انك تجهل جاك ارلنفورد ولذا تسألني هذا السؤال . فهو يدعو اصدقاءهُ والسيدة دشتون واحدة منهم . فلنتكلم في موضع آخر

— لا لا بل انما نتكلم في هذا الشأن لاني اروم ان اسمع منكِ شيئًا عن تاريخ حياتكِ منذ زواجك . ففي كل رسائلك التي كتبتِها اليَّ تجنبتِ الخوض في هذا الموضوع ولم تشيري اليهِ بكلمة . وقد بلغني عنهُ شيء كثير من غيركِ واما منكِ فلم اسمع قطُّ شيئًا . وأرى اني الرجل الوحيد الذي تسوّغ لهُ نسبتهُ اليك أن يكلم زوجكِ

— اراك متهيجًا جدًا فكيف تكلمهُ وانا لست متشكية من شيء . وما ذا يبعثك على اللجاج في خوض عباب هذا البحث المكدّر . الا تراني راضية مقتنعة ؟

— لما كنتُ في كلكتا سمعتُ باقترانك فتعجبتُ كيف ان والدتك الشديدة التديُّن رضيت بارلنفورد زوجًا لك لأنَّ سيرة ماضيهِ لم تخفَ على احد ووددت لو كنت حينئذٍ في لندن . على انني رجعت بعد ذلك من سفري وزرتك فوجدتك سعيدة . واظنني كنتُ اذ ذاك غبيًّا جدًا حتى قصرت نظري على الظواهر ولم اغص بعين الانتقاد الى اعماق قلب صديقتي القديمة

— هذا اذا كان لي قلبٌ

— حقًّا انكِ صبَّارة واحرص من أن تعلني شكواكِ . ولكن اعلمي ياعزيزتي اني صديقٌ مخلص لكِ على الدوام . فثقي بي واتكلي عليَّ . اتكلي عليَّ الى النهاية

فعبث الاضطراب بشفتي السيدة ارلنفورد ثم وارت وجهها بين يدها وقالت : —

— حتى مَ هذا العذاب ياربي . فقد ظننت اني اقوى قلبًا واشدُّ تجلُّدًا

— اراني سببت لكِ البكاء فهل غفلتكِ بشيء ؟

— لا . لا . لستَ انتَ المسبب لست انت . آه لو تعلم كيف كانت حياتي

— اخبريني اذًا أخبريني . لعلكِ تظنين الامر اردأ مما هو في الواقع

— ليس الامر في معرض الظن فلا شيء اردأ من حياتي وامرُّ من عيشتي ولم يقدّر الله لمخلوق شقاء نظير شقائي . ولكن رحماك ياغودارد رحماك ! إنسَ — ارجوك ان تنسى ما قلتهُ لك . لايرعك امري . ولقد كنتُ عازمةً على ان اكتمهُ ولا أطلع احدًا على مصيبتي . وليس لي صبرٌ كافٍ يمكنني من عرضها على ما تتخلص بهِ غالبًا من كانت نظيري من النساء — محكمة الطلاق — لاني أرى الموت خيرًا من اطلاع الناس على قصتي

— وهل من يلومكِ اذا فعلتِ هذا ؟

— ربما انت لا تلومني لانك تعرفني وقد عرفتني حق المعرفة في ماضي حياتي لكنك لا تقدر ان تقول للعالم " هوذا فتاةٌ ربَّتها والدتها الصالحة على الادب والصلاح ونشَّأتها على نموذج الطهر والعفاف وأشربت قلبها الاخلاص والمحبة والطاعة لزوجها . وقد زُفَّت الى رجل خليع فاسد الاخلاق وهي واثقة كل الثقة بحسن نتيجة هذا الرباط المقدس حتى طفق ظل ثقتها يتقلَّص وأخذت آمالها تخيب واحدًا بعد الآخر اذ لم يكن لهذه الثقة رسم في قلب رجلها " واذا قلتَ هذا سألك العالم " ما هو جرم زوجها ؟ " وطلب اثبات جناية عليهِ تستوجب العقاب الناموسي كأنَّ وجودهُ وحدهُ لم يكن جناية كافيةً . فملعونة انتِ ايتها الهيئة الاجتماعية العالمية الكاذبة التي لا تهتم بسوى المقام فتضحي في سبيلهِ كل غالٍ عزيزٍ وتقبل في عضويتها كل من تشوقها صورتهُ الحاضرة مهما كان تاريخ ماضيهِ . ولا تتعدّى في فحصها حدود الرُّتب والالقاب ! وكفى مثالاً بالسيدة د . وما انطوت عليهِ مما عميت عنهُ عيون اهل العالم المفتونة بالحسن الخارجي وما قبحهُ من حسنٍ كاذب

— يامسكينة ! يامسكينة ! فماذا أقولُ لكِ وبمَ أشير عليكِ ؟

— ليس من مشورة يمكنني قبولها — لاجل ولدي — ابنتي المسكينة الصغيرة التي اقلُّ

حراكٍ أبديهِ يعود عليها بوخيم العاقبة . اذ لا استطيع ان اجرح الاب من غير ان اجرح الولد معهُ . فلاجلها احتمل . على انَّ مصيبتي توشك ان تشبَّ عن طوق الاحتمال . واذ قد اطلعتك على كل شيء فلا بأس من أن أطلعك على الضرب الاخير من ضروب الفجور الضارب في بيتي اطنابهُ والرافع فوق زوجي قبابهُ . فمنذ بضعة ايام طلبتِ قلادتي الدرية فما وجدتها . وفي مساء ذلك اليوم كانت تلك المرأة (املي دشتون) التي استعدتُ للذهاب معنا الى الملعب واقفة امام المرآة ولما ابصرتني داخلةً اسرعت الى نزع شيء من عنقها وهو قلادتي المذكورة

— اتظنينها سرقتها ؟ — كلاَّ بل هو اعطاها اياها

— مهما يكن من خلاعتهِ وسقوط شأنهِ فلا اظنهُ يبلغ هذا الحدَّ من امتهانك

وقد بعثتهما هذه الحادثة على هياج وانفعال وحدة أخذت منهما كلَّ مأخذ فلم يشعرا بالسيدة دشتون التي عند دخولها عليهما حملتها عادة امثالها على نشر اذنيها لاستراق السمع فتقهقرت الى ما وراء الستار وجلست تصغي الى حديثهما فاحاطت علماً بهِ من أولهِ الى آخرهِ : ثم استطردت السيدة ارلنفورد كلامها فقالت : —

— ان امتهاني منهُ يزداد الف ضعفٍ كلما تكلمتُ عنهُ . ولا اعلم كيف استطعت الصبر على وجود هذه المرأة في بيتي . او تزعم اني لشدة تجلدي لا اشعر بما يبديهِ النساء والرجال حولي من التهكم والازدراء ولو على سبيل التلميح والاشارة من طرفٍ خفيٍّ ؟ ذلك كلهُ صبرتُ عليهِ الى الآن . ولكن اتت النهاية واذا صحَّ ظني من جهة القلادة —

— نعم . نعم . فكثيرًا ما يعرض للانسان محركٌ فجائي يخرج جيادهُ الطويل من دائرة القوة الى حيز الفعل . فمتى عرض لكِ شيء من هذا فلا تتأخري عن أن تخبرني بهِ . اذ ليس من شيء يحول دون تضحيتي كل عزيز في سبيل راحتكِ

وفي تلك اللحظة جاءت كتي مدلتن راكضة في وسط غرفة البلياردو واحاطة بمنكبي املي دشتون صارخة " بوّوه " فأجفلت هذه مرتعدة . وفيما هما داخلتان الى حيث كانت السيدة ارلنفورد وغودارد قالت كتي موردة الجد في معرض الهزل : —

— ان السيدة دشتون كانت تخطف حديثكما من وراء الستار ؟ فاجابتها السيدة ارلنفورد : —

— ما هذا الكلام يا كتي ؟ اليك عن هذا المزاح وارجو ان السيدة دشتون تغتفر لك هذه التهمة الباطلة

— لا بدَّ انها تسامحني وعندي لقاء ذلك قصة شائقة اقصها عليها . فتعالي ايها السيدة املي تعالي هوذا الرجال داخلون

الفصل السابع عشر

لبس القلادة

ثم خرجنا كلتاهما ودخل اللورد ارلنفورد والماجور كرتر اخو املي دشتون والمستر سنسناتوس بركز وهم بين ضحك ومسامرة فقال اللورد ارلنفورد :—

— اهلاً بغودارد . لقد ساءني طول انتظارك لنا

ثم قضى واجب التعارف بينهُ وبين الماجور كرتر والمستر بركز وعاد الى مخاطبتهِ فقال : —

— يود المستر بركز ان يطارحك عن برلين بعض أسئلةٍ لم اقدر ان اجيبهُ عليها . اما انت فقادر . انهُ مغرم جدًّا بالوقوف على شؤُون اوروبا وقد قلتُ لهُ انك الرجل الوحيد الذي يستطيع ان يجيب سؤَلهُ من هذا القبيل

— بكل سرور . اظنني اعرف لك اخًا ايها المستر بركز كان مصوِّرًا في ليبسك واسمهُ هوراس فيما اظن . الست مصيباً ؟

— بلى . وكثيرًا ما حدثني عنك . وقد أعجبني كتاب تعرفٍ بك . ولكن غيابك عن لندن حان دون انتفاعي بهِ

— لا استطيع الآن ان اعرض نفسي للقيام بخدمتك لاني لسوء الحظ مضطرٌّ ان ابرح لندن هذه الليلة لداعٍ مهم جدًّا . وارجو اني اعود بعد اسبوعين . اما الآن فتعالَ اطلعني على ما تروم الوقوف عليهِ

— شكرًا لمعروفك . سافعل هذا

ثم عرض لهُ ما شغلهُ قليلاً بحادثة السيدة الس فالتفت زوجها اللورد ارلنفورد الى غودارد وقال : —

— علمت انك مسافر هذه الليلة . فماذا عسى ان تكون نهاية هذه الاحوال الطارئة الشاغلة نظارة الخارجية والمتوجهة اليها افكار الناس عموماً ؟ اخبرتني السيدة دشتون انك تعرفها منذ ما كانت في الهند

— نعم والسواد الاعظم ممن هم نظيرنا قادرون ان يدعوا هذا الشرف ولم يدر في خلدي اني اجتمع بها هنا — في بيت وجدتها فيهِ بمقام ربتهِ

وقد نطق بهذه الكلمات بمزيد الحنق والشدة . ثم اعرض عنهُ واخذ يحادث تشارلس مدلتون الذي كان قد دخل مع المستر بركز . اما ارلنفورد فتأثرهُ بنظرهِ وقال هامساً :

— سوف اجزيك على هذا الكلام ايها الجرو

واذ ذاك دخلت السيدة دشتون ومن نظرها في وجه ارلنفورد وملاحظتها حركة شفتيهِ ادركت كنه ما نطق بهِ فدنت منهُ ولوائح النزع بادية على وجهها وقالت : —

— بخ . بخ ! انتهرك حبيب زوجتك ايها الساقط . حقًّا ان حب غودارد لالس يفوق الوصف اليس كذلك ؟

خلي الآن عنك هذا التشفي وقولي لي ماذا اجابك سكولوف ؟ هل يستطيع ان يعطينا المبلغ المطلوب ؟ — نعم

— ما ذا يريد مقابل ذلك ؟ — اكثر مما اقدر ان افعل

— صه ! لابدَّ من ان تفعلي ما يريد . لانَّ حاجتي الى المال تفوق الوصف

— يريد أن يعاق غودارد عن السفر هذه الليلة فما رأيك

— وهل هذا ممكنٌ

— عندي وسيلة لذلك بشرط أن توافقني عليها

— إن ! بشرط ! تقولين هذا وانتِ عالمة بشدة احتياجي الى المال والاَّ —

— اذًا دعني البس القلادة فانها معي

— القلادة ؟ لماذا ؟ كيف ؟ لا — ليس هذا

— اذا توَلَّ انت سد خرقك

— مهلا يا املي لاتغتاظي

— وانت تعقَّلْ ولا تكن غبيًّا

— سأجيبكِ بعد عشر دقائق

ثم خرج الى غرفة البلياردو . اما هي فقالت في نفسها : —

— لقد حان وقت التشفي والانتقام . وانتِ يا أَلس ماذا قلتِ ؟ قلت ان صبركِ يفرغ اذا تحقَّق ظنك من جهة القلادة فلسوف نرى . وانت ايها القائد غودارد ستغتنم فرصة القيام بوعدك لها

ثم نهضت من مكانها وجاءت الى حيث كان الباقون جالسين قرب النار وكانت كتي آخذة في سرد ما سمعتهُ من السيدة دشتون عن الشيطانة الجميلة فقالت :

— من يعرف هذه المرأة العجيبة ؟

فاجاب الماجور كرتر : — كلنا نعرفها بالسماع نظرًا لاتساع نطاق شهرتها . فقال المستر

بركر : — كلكم ما عداني

فاجابهُ كرتر : — لم اتوقع اني أجد من لم يسمع بها بعد . وحقًا ان تاريخ اعمالها يؤلف كتاب "الف ليلة وليلة" آخر . ومن العجب انها باقية مجهولة عندك . فليس من امرأة ذائعة الشهرة نظيرها .

— هل نظرتها ؟

— كلاَّ . واظنها لا تقبل من يأتيها لمجرد الزيارة العادية فهي دائمًا مشغولة بالمسائل السياسية وقلما تخطىء حلها

فقالت املي دشتون : — لكن اكثر الاخبار المروية عنها غير صحيحة لاني اعرفها حق المعرفة . فليس لها شبيه في الهشاشة الى اصطناع المعروف وفعل الخير حتى انها اصبحت ملاذ كل من عضهُ الفقر واخنى عليهِ الدهر .

وفيما هي تتكلم دخل ارلنفورد يصحبهُ البرنس سكولوف فجلسا منفردين في ناحية من تلك الغرفة الفسيحة واستأنف المستر بركر كلامهُ فقال : —

— لا بد ان تكون غنية جدًا حتى يمكنها ان تعيش على هذا الاسلوب

فقالت السيدة دشتون : — انها لكذلك . لكننا بهذا الحديث نزعج السيدة ارلنفورد . اظنك لا تهتمين بسيرة من تلك اخبارهم للسمع نظير الشيطانة الجميلة

— نعم ولا سيما اذا كانوا غير مشهودٍ لهم بحسن الصيت

فقالت املي : — ما رأيك ايها القائد غودارد في الشيطانة الجميلة ؟

— ان شعوري نحوها يتنازعهُ الحنو والحزن لانها امرأة والمرأة التي تقدم على مصادمة العالم لا بد ان تكون اخيرًا هي الخاسرة

فقال البرنس سكولوف بعد ما عرفتهُ السيدة ارلنفورد بالقائد غودارد : — وازيد على كلامك ايها القائد ان اشياء كثيرة قيلت عنها وكتبت بشأنها . فهي قاسية جدًا في بغضها قدر ما هي لينة في حنوها ومحبتها . فحياتها حياة انتقام — انتقام نشأ عن خطإٍ ارتكبتهُ

فسأل بركر : — وما هو اسمها الحقيقي ؟

فاجاب كرتر : — لا احد يعرف

فاعترضت املي قائلة : — او بالحري ليس من يعرف ويقول

فقال سكولوف : — من عادتها ان لا تطلع احدًا على ماتروم اعلانهُ او كتمهُ

ثم التفت الى غودارد وقال : — قد جئت الان من عند الدوك حيث سمعت عن امكان

ترقيتك بواسطة الجنرال سافيل فاقبل تهنئتي مقدماً .

— بمزيد الشكر والثناء

— هل لك ان تزورني غداً ؟ — اني بارحٌ لندن الليلة

— زرني اذا بعد رجوعك هنا او في برلين حيث اكون بعد اسبوع فاعرفك بالشيطانة الجميلة

وعاد غودارد للاشتراك في محادثة الآخرين فاتبعهُ سكولوف نظرهُ وقال في نفسهِ : — اظنك لا تسافر

ثم اخرج رسالة برقية من جيبهِ وقرأ فيها ما يأتي :— "ان الرسائل التي يحملها غودارد تتضمن القرارات الاخيرة فعاقتها ضرورية جداً . والتفصيل مع رسول خصوصي."

فقال : — حقاً ان الحياة مجهولة فما اصدق القول " ما مضى فات والمؤمل غيب " فهذا القائد يظنُّ انهُ يسافر هذه الليلة وانا اتوقع عاقتهُ عن السفر . فمن منَّا يكون مصيباً ؟ لا اعلم .

ثم جلس بجانب مائدة صغيرة اخذ عنها مجموع صور وشرع يلهي نفسهُ في الاطلاع عليها .

واذا بتشارلس مدلتون نادى املي دشتون التي كانت مشغولة بمحادثة ارلنفورد قائلاً

— وعدتني انك تلعبين امامي لعبة في البلياردو فتعالي الآن بينما الباقون مشغولون عنك وانجزي وعدكِ لي فنزيل الكدر بضرب الأكر

فنهضت وسألت ارلنفورد : — اتسمح لي بالذهاب مع هذا الصبي ؟

فقال " طوباهُ ياليتني اياهُ طوباهُ " ثم قبض يدها وضغطها . فلم يفت عملهُ هذا نظر امرأتهِ وكانت اذ ذاك ملتفتة نحوهُ . ولاحظ غودارد سرعة تغيُّر لونها فتبع جهة نظرها فادرك السبب . اما ارلنفورد فسار الى حيث كان سكولوف وقال لهُ : —

— هل استهجنت فعلي ايها البرنس — كلاَّ البتة

وحينئذٍ انقطع ارلنفورد للتأمل في طلب املي من جهة لبس القلادة فقال في نفسهِ : — ماذا عسى ان تريد بلبسها ؟ أمرادها ان غودارد يراها ويضطران يتعرَّض لمقاومة وقاحتها هذه فيفعل ما يسبب لهُ التأخر عن السفر ؟ اظنها مصيبة في رأيها حسب عادتها . وسوف نرى سوف نرى

فقالت الس لغودارد : — سأترك بعد سفرك لرحمة هذه الضاربة

— اصبري ولا تقنطي . تظاهري بعدم الاكتراث والاهتمام وهذا اعظم ثأرٍ واشد انتقام

فنهضت كتي مدلتون وقالت :— تعالوا معي وانظروا . اني ذاهبة لأحول دون لعبهما . وسأريكم كيف تعلم السيدة دشتون اخي تشارلس لعب البلياردو . انها لعبة حسنة ؟ ؟ اصغوا فما من صوت لضرب الاكر ؟

الفصل الثامن عشر

لعب الايكرتيه

وبعدما فرغت من كلامها دخلت غرفة البلياردو ومعها كرتر وبركز والسيدة ارلنفورد التي تبعتها لتحول دون اتمام مرادها . وهمَّ غودارد ايضاً بالدخول لكنَّ ارلنفورد انتهز فرصة الكلام معهُ فاوقفهُ قائلاً لهُ : — انك ياغودارد صديق قديم لالس فاروم منك ان تشير عليها بان تكون الين عريكة مع السيدة دشتون

— يجب عليك ان تطرد هذه الخليعة من بيتك

— باي حقٍ تتعرض لما يتعلَّق بي وحدي

— بحق القرابة والصداقة

— انظر ياغودارد لم يعد يمكنني الصبر . ويشقُّ عليَّ ان أراك تحبُّ امرأتي على مسمع مني ومرأى وسأمنعك ان تراها بعد الآن

— أُحبُّها ؟ أنا — اه ياكلب الرجال ونذل الانذال . ولولا حرمتها وخوف تكديرها لاريتك عاقبة هذا الكلام في الحال ولكن ليس هنا مشهد الانتقام منك فقريباً نلتقي

وقد فاه بهذه الجملة الاخيرة على مسمع الآخرين فخرجوا على الفور من غرفة البلياردو . واسرعت السن للفصل بينهما وقالت :— ماذا حدث ؟ اراكما تخنصمان !

فاجابها غودارد :— لا . لا . بل هي محاورة طفيفة . وقال زوجها

— اختلفنا على شيء في لعبة الايكرتيه وسنفصلهُ الآن ان شئت ياغودارد . اني اراهنك على صحة قولي بمئة جنيه .

— قبلت وسنرى من منا هو المصيب

وجلسا على مائدة وظلَّ البرنس يقلِّب الصور ولم يخفَ عليهِ ماحدث وجلس كرتر وبركز يتحادثان والس بجانب النار وكتي على البيانو .

وما شرعا في اللعب حتى انسلَّت املي من غرفة البيانو فنظر سكولوف الى ساعتهِ واذا هي احدى عشرة . وكان على غودارد ان يذهب بعد ربع ساعةٍ فدنت املي من ارلنفورد وامرَّت اليهِ : — لقد عيل صبر البرنس سكولوف فهل اشرع في العمل ؟

— البسي القلادة

— اذاً تتأخر الرسائل وتنال انت مطلوبك فطب نفساً وقرَّ عيناً

واذ ذاك اقترب البرنس سكولوف من السيدة ارلنفورد وقال

— أراك شاحبة اللون فعسى ان لاتكوني متألمة من مرض. وعندي انك تغادرين لندن طلباً للتنزه . وعلى اللورد ارلنفورد ان يذهب بكِ الى نيس .

وحينئذ دخلت املي وفي عنقها قلادة من الدر الفاخر تسطع كالنجوم الزواهر فلما رأتها الس اجفلت مذعورة واماسكولوف فقال بلهجة دلَّت على خلو ذهنهِ من هذه المسألة : —

— يالها من قلادةٍ نفيسة ! عفواً ايها السيدة املي فاني لم انظرها في عنقك قبلاً

— نعم انها جميلة الى الغاية وقد أُعطيتها هديةً

فالتفت غودارد ونظر الى القلادة . اما الس فبالجهد استطاعت الجلوس على كرسيها . فامَّر غودارد الى ارلنفورد الجالس مقابلهُ على المائدة قائلاً :

— يالك من نذلٍ مهان

— اراك ظهير زوجتي فناضل عنها ان استطعت

فقالت املي لسكولوف : —

— تعال ايها البرنس وكن من جملة اللاهين بمشاهدة اللعب

ثم تقدمت نحو اللاعبين يتبعها المستر بركز واخوها كرتر . وفي اثناء ذلك اقتربت الس من المائدة وانحنت الى اسفلها والتقطت من تحتها احدى الاوراق التي لم يستعملها اللاعبان "جويزة السباتي" وكتبت عليها بمزيد السرعة ما معناهُ : —

"لم اعد استطيع البقاء في هذا البيت ساعة واحدة ولا بُدَّ من ذهابي معك"

وكانت املي دشتون تترقبها . أما الس فدنت من غودارد والقت الورقة التي كتبت عليها تلك الجملة في حضنهِ . فأخذها بخفة زائدة واخفاها غير عالم ان املي مترصدة كل حركة حدثت فاسرعت الى جهة ارلنفورد واطلعتهُ سرًّا على ماجرى فرفع نظره الى غودارد وسألهُ : ماذا اخفيت

— انا — انا ؟ لم افهم معناك

— اظهر الورقة التي معك

— ليس ذلك في امكاني

— هكذا ظننت

ثم القى من يدهِ ورقة الى يد املي دشتون باسرع من وميض البرق بحيث لم يتمكن احدٌ

من رؤيتهِ ونثر بقية الاوراق على المائدة وقال

— انظر فإن ورقة " الروَا " او (الربة) ليست معي

فصاح غودارد وهو يكاد يتميز غيظاً : —

— ماذا تعني بهذا

— اعني اني لا العب مع رجل خدَّاع !

فنهض غودارد على قدميهِ وصرخ ضاغطاً صدغيهِ بيديهِ : — يا ويلاه !

ثم دخل رجل طاعن في السن عليهِ شارة العسكرية وهو الجنرال سافيل فقال : —

— كيف حالكم جميعاً ؟ بشراك يا غودارد فان الدوك اجاب طلبي من جهة ترقيتك وبعد رجوعك من سفرك تكون اركان الحرب

ثم لاحظ هذا الجنرال السكوت المستحوذ على الجميع والامتقاع العابث بوجوه اكثر الحاضرين فسأل : —

— ماذا عسى ان يكون ؟ ولمَ اراكم جميعاً سكوتاً ؟

فأعاد ارلنفورد جملتهُ الاخيرة وزاد عليها بعض الشيء قائلاً : —

— أُعيد القول ان تصرُّفك هذا لا يسمح لمن كان نظيري أن يلعب معك واطلب خروجك من بيتي في الحال

فصاح الجنرال سافيل : —

— ارلنفورد ! كيف تجاسرت على مثل هذا الكلام . زدني ايضاحاً والاَّ فانت مختل العقل

— هاك الايضاح — ان القائد غودارد اخفى ورقة ليست لهُ وابى اظهارها وهي " رَوَا السباتي "

— فَنِّدْ يا غودارد كلامهُ وبيّن كذبهُ أجب في الحال

— انهُ محض افتراء

— فقال ارلنفورد : — اذاً ارِنا الورقة

وصرخ الجنرال : —

— نعم اظهرها

— لا اقدر

ثم استولى على الجميع سكوت عميق اعترضهُ صوت سقوط وذلك ان السيدة ارلنفورد كانت في اثناء هذه الحادثة تجهد نفسها في التكلم فلم تستطع اليهِ سبيلاً كأنَّ كلمةً من حديد

وُضعت على فمها . ولمَّا تكلم غودارد كلمتهُ الاخيرة سقطت مغشيًّا عليها . فقال الجنرال بلسان الغيظ والحنق : —

— اعلم يا غودارد انهُ لم يبقَ لك سوى الاستقالة من الرسالة التي كنت مزمعاً ان تسير فيها وقد أقلتك مذ الآن . ولو كنت يا بنيَّ قاتلاً لكان ذلك ايسر عندي خطباً مما شهرتَ فيهِ هذه الساعة !

ثم اشاح بوجههِ عنهُ واذ رأى سكولوف تقدَّم اليهِ . فصرخ غودارد

— يا تلفي ويا خرابي !

وخرج

وبعد ساعة ذهب سكولوف الى بيت املي دشتون واعطاها عشرة آلاف جنيه حوالة على بنك انكلترا

الفصل التاسع عشر

في مرقب سياسي

ان الحوادث السياسية التي بدأت عام ١٨٧٦ بلائحة الكونت اندراسي انتهت بمؤتمر الاستانة في شهر يناير عام ١٨٧٧ وفي اواسط هذا الشهر ذاع في عواصم اوربا خبر رفض الاقتراحات التي عُرِضت على الباب العالي في المؤتمر المذكور . وفي آخر مارس ارسلت الدول بلاغاتها الاخيرة الى جلالة السلطان وفي ٢٤ ابريل اضطربت اوربا اذ سمعت ان روسيا شهرت الحرب على تركيا وفي شهر اوغسطس — وقت عود قصتنا على بدء — أُنشئ مرقب روسيا السياسي في قرية دوه كوي في البلقان بين اسكي زهرة وادرنه واقام فيهِ البرنس سكولوف والشيطانة الجميلة يراقبان مجاري الحوادث السياسية

وقبل هذا الوقت باسابيع قليلة جاءت اليهما املي دشتون فانها عانت كثيرًا من ضروب المشاق والاتعاب في إخفاق مساعيها وخيبة آمالها بعدما فارقناها في لندن وقد طرأت اختلافات مهمة وتغيُّرات ذات شأن على حياة اكثر ممثلي هذه الرواية الذين اشتركوا في تمثيل ذلك الفصل في بيت ارلنفورد في تلك الليلة التي قضت على غودارد بالوقوع في الشرك الذي أُخفي لهُ

اما السيدة ارلنفورد فظلَّت اياماً طوالاً على فراش النزع تراوح بين الموت والحياة وكانت

في أثناء بحرانها وذهولها تهذي كثيرًا وتشير الى حادثة تلك الليلة الهائلة . ولما شفيت من الم هذه الضربة الثقيلة وثاب اليها رشادها كان غودارد قد اختفى اختفاء طمس عن العيون آثاره وقطع عن الآذان أخباره . ثم انتقلت السيدة ارلنفورد الى بيت امها حيث عملت كتي مدلتون على ملازمتها وتسليتها ووقفت منها على باطن تلك القصة واحاطت علمًا بكل ما يتعلق بها . فاخذتا تقلبان الافكار وتتبادلان الآراء في هذا الحادث الجلل . وبعد امعان النظر رأتا انهما اذا نشرتا حقائق هذه المسألة بين ظهراني القوم في غياب غودارد تعرَّضتا لاتهام الناس اياهما بانهما اخترعتا ما كتبتاه اختراعًا لتبرئة من حاول ارلنفورد اتهامهُ بمحبة زوجتهِ . وبناء عليهِ اجمعتا على التأني لعلهما تسمعان خبرًا عن غودارد فتدعواهُ الى مساعدتهما على تبرئة ساحتهِ من التهم التي رماهُ بها اللورد ارلنفورد واملي دشتون واخوها الماجور كرتر

وقد انتهت مسألة لبس القلادة وما تبعها من حوادث تلك الليلة الى غاية تعذَّر تعديها وانتجت نتيجة لم يمكن تلافيها ألا وهي طلاق اللورد ارلنفورد الذي تمَّ بحكمٍ غيابي عليهِ اذ لم يجب دعوة المحكمة بالحضور امتثالاً لاشارة املي دشتون . وبعد اختفاء غودارد لاحظ ارلنفورد ان الناس اخذوا ينظرون اليهِ في الاندية والمجتمعات العامة نظرات ابرد من رياح الاصقاع القطبية وابوا عليهِ التفوه باسم " غودارد " وخيبوا مساعيهُ في تذنيب ذلك القائد وتعظيم جنايتهِ حتى ملَّ الاقامة في لندن فهاجرها وخرج يجول في نيس ومونت كارلو . ولم تبطئ أملي دشتون ان لحقت بهِ وقضت معهُ وقتًا لم تصب فيهِ عيشًا اغراها بالبقاء واطالة شقة المكث . ولهذا لم تلبث ان لبت دعوة البرنس سكولوف لها الى شبه جزيرة البلقان اذ توسمت في هذه الدعوة فرجًا تنشط بهِ من عقال القنوط والفشل وتنسمت ريحًا مثقلةً باطياب الرجاء والامل . ولما بلغت المرقب السياسي اعلنت رغبتها في القيام بخدمة سكولوف وذكرتهُ ما لهُ عليها من سالف الفضل وسابق المعروف

وقد صاقب طلاق السيدة ارلنفورد وقت اقتران كتي مدلتون بدك سافيل . اما الانباء عن غودارد فكانت في الاول الامر قليلة جدًّا ثم انتشرت ملتبسةً مقلقة واخيرًا ذاعت ناعية محزنة فانهُ بعد خروجهِ من منزل ارلنفورد ذهب بالرسائل التي كان مندوبًا للسفر بها وسلمها الى رئيسهِ رافعًا اليهِ استقالتهُ من منصبهِ فحملها رسول آخر مع بريد الساعة العاشرة في صباح اليوم التالي ثم خلا في ذلك اليوم وقتًا طويلاً بالجنرال سافيل ولما خرج من لدنهُ كانت الدموع ملءَ عيني ذلك الشيخ الجليل أسفًا على سوء مصير غودارد . وقد اوضح اسفهُ هذا على مسمع كثيرين في احد الاندية بقولهِ : —

— مهما يكن من هذه الزيئة الفادحة التي اصابت غودارد فاني لا انفك احبهُ واعجب بهِ اعجاباً لا مزيد عليهِ . نعم انهُ لم يطلعني على شيء من خفايا تلك الحادثة لكني أُقسم لكم انهُ منقطع النظير في عزة النفس وطهارة الضمير . ولا بد اننا نقف يوماً على كنه هذا الحادث الجلل أما الآن فليس لنا غير الصبر وتوقع تحقيق الامل

وفي اليوم التالي سافر غودارد الى اميركا . وفيها شاع انهُ انتظم في سلك الخدمة العسكرية وشهد موقعة في الثورة التي نشبت حينئذٍ في داخليتها فاصابتهُ رصاصة اوردتهُ حتفهُ

ولنرجع الى تتبع حوادث قصتنا فنجد البرنس سكولوف جالساً في غرفتهِ الخاصة في مرقبهِ السيامي مكبًّا على مطالعة ما لديهِ من الرسائل وامامهُ خريطة يمعن نظرهُ فيها من وقت الى آخر . وعلى يساره كاتم اسراره ديمتري كيراتيف ينتظر فراغ رئيسهِ وانتباههُ اليهِ . فرفع سكولوف نظرهُ من الخريطة وخاطبهُ قائلاً : — هات ما عندك من الانباء

— ان السيدة دشتون حاولت هذا الصباح فتح كيس البريد بدعوى انها وضعت فيهِ رسالةً سهوًا . وقد فتحتهُ لها فلم يكن فيهِ شيء مما ادعتهُ . والبارونة التدروف بعثت الى سموكم برسالة مع رسولها الخاص قبل الفجر

— هل عرفت مضمونها ؟

— كلاَّ لاني لا اتعرض لما يرد منها او يصدر اليها

— هل راقبت رسولها عند رجوعهِ ؟

— نعم وقد سار في جهة اسكي زهرة

— ألم يرجع بعد ؟

— كلا

— هل من شيء آخر

— كلفتني السيدة دشتون اهداء احترامها اليكم وطلب الاجتماع بكم متى شئتم

— اين هي الآن ؟

— خارجاً تتمشى في الرواق

— أُدعُها اليَّ حالاً

فخرج ديمتري يدعوها وفي غيابهِ قال البرنس سكولوف في نفسهِ كأنهُ يخاطب أملي دشتون

— حقًّا يا أملي انك لاتستطيعين ان تمسكي نفسك من الاستغراب لانك متشوقة جدًّا الى الاطلاع على اسباب دعوتي اياك من مونت كارلو الى هنا . فاحذري ! نعم احذري !

انك خادمة نشيطة . لكنك اصغر جدًّا من التسلط واستلام زمام الترأس . وقد حاولتِ الاطلاع على رسائلي ! فما هذا النشوز ! أ الى هذا الحد بلغت بك القحة والجرأة ؟

ثم استلقى على كرسيهِ واوغل في الضحك . ودخلت املي اذ ذاك فقالت :—

— ماذا ؟ على انفراد وفي سرور ؟ يالك من رجل سعيد!

— ان أُولي الحزم والدراية لايتكلون على احدٍ في شيء ولو كان مما يبعثهم على المسرة والانبساط

— اصبت . ولكن هل انت واثق انك حرٌّ ومستقلٌّ بقدر ما تظنُّ ؟

— تلك دروس املاها عليَّ اساتذة التجربة والاختبار في مدرسة هذه الحياة .

— اراك نظيرا كثر طلبة هذه المدرسة الذين أُولعوا بدرس الآخرين فقضوا وقتهم فيهِ وشغلوا بهِ عن درس انفسهم . فخلِّ عنك هذه التعللات الباطلة واتركها لحمقى نظيري

— هذا ما كان من قبيل سروري . فلننظر فيما يتعلق بكِ . بلغني انكِ ترومين الاجتماع بي

— نعم لاني لم ارتضِ بنتائج تلك الحادثة وقد وعدتني المساعدة وبناء على وعدك هذا اتممتُ ما اقترحتَ عليَّ اتمامهُ . ولم ارتب في ان السيدة ارلنفورد عندما تنظرني لابسةً القلادة تُقدم على فعل ما يُسبب عاقة غودارد وكان كما توقَّعت . لكنني لم انل شيئًا مما رجوتهُ ولا زدت اقترابًا مما عللت نفسي بالوصول اليهِ والحصول عليهِ . حتى سئمت السعي ولم يعد لي طاقة على تحمل المشقة والنصب فجئتك التمس منك ان تفرج كربي وتهبني راحة من العناء والتعب

— واعجبا ! أيصحُّ في شرعكِ وقضائكِ ان أُوخذ بخطائكِ ؟ نعم اني اقترحتُ عليكِ السعي في عاقة غودارد واعدًا اياكِ باحسن جزاء فاقدمتِ على عاقتهِ فنجحتِ فنلتِ الجزاء مبلغًا فاحشًا أليس كذلك ؟ اذًا من اللورد ارلنفورد شكواكِ وعدم رضاكِ لا مني . قولي لي صريحًا ماذا وعدكِ ؟ مالكِ ساكتةً لا تجيبين ؟ لكني اعلم . وعدكِ انهُ اذا امددتهِ بالمال يطلِّق زوجتهُ أو يكرهها على طلب الطلاق ويتزوجكِ . فقد انجز القسم الاول من وعدهِ واخلف القسم الثاني

— كيف عرفت هذا ؟

— لم اعرفهُ من احدٍ سواكِ . لكنك اخطأت في تعليل نفسكِ بهذه المطامع فكامرأةٍ تكونين عندهُ مطلوبة محبوبة واما كزوجة فمكروهة ممقوتة

— او تظنني لتوغلي في معاناة مشاق هذه الحياة عدمتُ الشعور الى هذا الحد ؟ . كلا لست كذلك . ارعني سمعك . اني مغرمة بجاك ارلنفورد ولست اجهل نكد طالعهِ وسوء مصيرهِ

ولعل هذا من اكبر البواعث التي حملتني على حبهِ . ولا يمكنني ان اصدق عدم اهتمامهِ بي . ولو لم تجر رياح الامور على خلاف مشتهاهُ لما تأخر عن ان يبرَّ بوعدهِ . ولكن بعد الطلاق التوى القصد وساءت الاحوال حتى أُكره على مزايلة لندن فصحبتهُ الى نيس وهناك افلس ولم يعد في طاقتهِ ان يأتي حراكاً بلا مال والعياذ بالله من صفرِ الاناء وقرع الفناء

فاجابها باسماً : — اسمحي لي ان ابين لكِ انهُ لن ينجز وعدهُ مهما حسنت حالهُ

— كيف ؟ أمرادك انهُ لا يهتمُّ بي اهتماماً حقيقيًّا ؟ لو ظننت —

فاعترضها قائلا : — ان اللورد ارلنفورد ساع الآن في الاقتران بسيدة اميركية غنية وهي ابنة عم المستر بركز الذي اجتمعنا بهِ في تلك الليلة فلا يبالي بسوى المقامرة وسيكون ميلهُ اليكِ دائماً على قدر الدراهم التي تجمعينها لهُ . فاخبريني الآن بالمبلغ الضروري — لسعادتك ورفاهيتكِ واخدميني فيهِ بسعي صادق في سبيل الوقوف على بعض التفاصيل عن موت القائد غودارد لأنَّ ذلك يهمني جدًّا

— غودارد ؟ اين آخر عهدنا بهِ ؟ مهلاً اين آخر عهدنا بهِ ؟ الآن تذكرت . بعد ما ألمَّت بهِ تلك الفضيحة سافر الى داكوتا في اميركا وهناك تجنَّد في إخماد الثورة وقُتل اليس كذلك ؟

— لكني اروم الوقوف على التفاصيل بجائزة حسنة فهل لي أن استعين بكِ على ذلك ؟ اني ارى تغييراً عظيماً في الشيطانة الجميلة فلم تعد تبالي بشيء ولم ادرِ السبب

— قلت مرة "ان الشيطانة الجميلة لا تطلع احداً على ما تروم كتمهُ" وهذا هو جوابي الآن لك فاني امرأة عصبية المزاج شديدة التأثر و — هو ذا الشيطانة الجميلة خارجاً تتمشى ولعلها تروم الدخول . وقبل خروجي اقول لك اني مستعدة على الدوام ان ابذل جهدي في مساعدتك . فهل اذهب الآن ؟

— كلا

ثم نهض لملاقاة الشيطانة الجميلة وهو يقول في نفسهِ عنها :—

— من ذا يرى وجهها الجميل السائل برقة الملاحة و يصدِّق انها صلبة يتعذر استمالتها ؟ فقد قضيت الآن نحو سنة وانا اشبه بفراش حول لهيب جمالها الساحر وحسنها الباهي الباهر — نعم انا — الكسس دورسكي !

الفصل العشرون

قائد الفرقة الطيّارة

وما دخلت الشيطانة الجميلة ومدّت يدها للسلام على سكولوف حتى دَوَّت هاتيك الانحاء بصوت مدفع بعيد أُطلِقَ طلقتين متواليتين فقالت الشيطانة : —

— هذا من اسكي زهرة ومنهُ يتحقق ان الفرقة الطيّارة أصبحت قريبة منّا

فاجابها البرنس ناظرًا الى ساعتهِ : —

— هكذا يظهر وهو مطابق للانباء التي بلغتني منذ بضعة ايام. وحينئذٍ اخذت السيدة دشتون في حديث طويل تخلصت منهُ الى هذه الجملة : —

— حقًّا ان هذه الانحاء موحشة جدًّا لخلوها من مظاهر المدينة ووسائط الحضارة . وعندي ان الوصول اليها أص — أص — أصعب من مقتل غودارد المسكين

وقد نطقت بهذه العبارة الاخيرة بلجلجة لا مزيد عليها كأنها تجهد قريحتها في استخدام تشبيهٍ مناسبٍ . فلما اتمتها انتفضت الشيطانة الجميلة من سماعها لكنها تغلبت على نفسها بجهد عنيفٍ لم يخفَ على البرنس سكولوف فقال : —

— يالها من مشابهة !

فقالت املي : —

— لاادري كيف خطر مقتلهُ على بالي في هذه الدقيقة ومن العجيب الغريب ان انساناً نظيرهُ يخرب بناء رجائهِ بغتةً حين كان يرجى لهُ احسن مستقبل . وقد عرفتهُ جيدًا ولكن ما الفائدة من ذكرهِ امامكما وانتما تجهلانهِ وقلما تعرفان عنهُ

تخان الشيطانة الجلد واقدمت على السؤال بمزيد الاهتمام لكنها شعرت ببطيشها وعدم تثبتها فتلافت امرها من نصف كلامها الآتي : —

— تعرفينهُ ؟ ما اسمهُ ؟

— او بين غودارد . سوف اطلعكِ على قصتهِ بالتفصيل حين ازوركِ في غرفتك الخاصة

فقال سكولوف : —

— اراكِ معتمة لهذا الرجل

— نعم . لان من يخرب بناء مستقبلهِ في الدقيقة التي ابتدأت فيها حياة تقدمهِ وترقيهِ

يكون سببهُ اعتياديًّا — امرأة . ولا بُدَّ ان تكون قصتهُ ذات شأن

— اذًا رأيكِ انهُ حينما يسقط رجل في مهاوي التلف يكون سبب سقوطهِ دائمًا امرأة

— ليس كما قدمت واستنتجت فقد تسوء حال الانسان لاسبابٍ كثيرة ولكن حينما يسوق الخراب الى نفسهِ يتوقع الآخرون ان يكون السبب امرأة

— لنرجئ هذا البحث الى وقتٍ آخر فقد حان قدوم زائري فسألتهُ املي : —

— من هما ؟

— سوف تعرفينهما

— اذًا انت تُعدُّ لي سببًا كبيرًا للدهشة والابتهاج ولهذا يترتب عليَّ عدم اللجاج في السؤال . فالى الملتقى . .

وبعد خروجها سألتهُ الشيطانة : —

— من هما زائراك فلم تخبرني شيئًا عنهما

— لانهُ لم يكن لي شيء اقولهُ عنهما حتى هذا الصباح . فهما المستر سافيل وقرينتهُ ولسوف تُسرّين كثيرًا برؤيتهما لانهما اهل ادبٍ شائق ولطفٍ رائع . وقد بلغا هذه التخوم منذ يومين وارسلا يطلبان مني جواز المرور . وفي الليل الماضي وصلا اسكي زهره واليوم يقدمان علينا . على ان اقتراب الفرقة الطيارة جعلني في شغل شاغل من نحوهما

— قل لي لماذا دعوت تلك المرأة — السيدة دشتون — من نيس الى هنا ؟

— لانني ظننت انك تسرّين بالاجتماع بها

— بل لانك توقعت انها تفيدك شيئًا عني !

— اذًا لم سألتني ؟

— لارى هل تخلص في الجواب فاتحقق صدقك وامانتك . وليس بخافٍ عليك اني اكره الكذب وابغض مايولدهُ الجبن والخوف . فاسألني عما تروم معرفتهُ فهل نقصتني قطُّ شجاعة في الكلام

— اراكِ مغتاظة جدًّا ايها البارونة . ولقد طالما كنت صبورًا عليك غير جازعٍ

فادركت الشيطانة انها جرحتهُ بالكلام واسرعت في الاعتذار فقالت : —

— عفوًا ياسيدي البرنس ان ضعفي يوشك بعض الاحيان ان ينسيني مالك عليَّ من الجميل لاني لست سوى امرأةٍ

— قد كنت ولازال ارجو ان أُنسيك اسباب ضعفك فالى كم يبقى هذا الرجاء باطلاً ؟

او لا تطرحين عنك الاهتمام بما اراكِ وقفتِ حياتك على مصارعتهِ من الخطوب وتعيرين جانب الالتفات الى ضياء السعادة الساطع الاشراق ولكِ ان تملكي ناصية التمتع بهِ منذ الان بحق المحبة الذي لا ينازعكِ فيهِ احد ؟

— اظنك تذكر ان اتفاقنا كان واضح المبدإ ولا تحتاج الى التذكير . وعند ما وطنتُ نفسي على القيام بخدمتك علمتُ اني عرَّضت نفسي لامر خطرٍ وقد بعتكَ تلك الحياة — اذا مسَّت الحاجة الى الموت لكني لم أبعك نفسي

— ولكنكِ تهيبينها هيبةً . ان الحصول على الشفقة ام المحبة يتطلَّب قرع باب الجودة — كارينا (١) ما احلاها اسماً ! ولهذا اودُّ ان ادعوك بهِ

— هو اسم امي ولذلك تجدهُ مقدساً عندي ولكن دعنا من هذا ! ولا حاجة بنا الى التكلُّم بالغازٍ . انك تعرف جانباً من دخيلة امري وتروم ان تعرف شيئاً اكثر . ولكن اقول لك صريحاً انك لست مستطيعاً ان تعرف عني شيئاً بواسطة تلك المرأة . ولك الآن احسن فرصةٍ تنتهزها . إسألني ما شئت ولي ان اكتم عنك ما أُريد لكني لا اكذب

— هل يهمكِ امر الرجل غودارد ؟

— الى الغاية

— لم اسمعكِ قطُّ تذكرينهُ

— كل ما هو في سويداء الفؤاد بعيدٌ جدًّا عن الشفتين

— وهل تعلمين ما المَّ بهِ ؟

— اعلم انهُ مات ان صدقت تلك المرأة . وخيرٌ لك ولمصلحتك ان يكون موضوع اهتمامي في راحتهِ الابدية . فمرني تجدني طوع بنانك وانما دعني اتولَّى جهة غلطاتي الفادحة واتعرَّض لنشق سمومها اللافحة . وقد قلتُ لك اني أُطلعك على انباء جديدة . فعندي الآن نبأٌ يقصّر عن وصفِ غرابتهِ الكلام — نبأٌ حذقٍ وبسالةٍ وإقدام

— ماهو

— ان جيوشنا لقيت في طريقها موانع عظيمة والى الآن لم نستفد شيئاً كبيراً من مرقبنا السياسي لان ماتوقعناهُ من ورائهِ خيبتهُ حركات الفرقة الطيارة التي نسمع عنها كثيراً ونرى منها قليلاً اليس كذلك ؟

— بلى فان كلامك هذا طبق انباء سكوبيلف الاخيرة .

(١) معنى «كارينا» الجودة او الاحسان

— وقائد هذه الفرقة يكون هذه الليلة في قبضة يدي . فكم يساوي اسرهُ

فاجابها البرنس بتعجب لا مزيد عليهِ

— قائد الفرقة الطيارة هنا ؟ هذا مستحيل

— تقول هذا لانك غير قادر قوة سحري حق قدرها فضلاً عن مهارتي في المسائل السياسية

— ايجدّ تقولين هذا ؟

— نعم فقد رأيت بعد جهد التأمل اننا في حاجة شديدة الى ازالة هذا القائد من طريقنا فمهدت لهُ السبيل واعددت الوسائط الفعّالة

— ولكن هذا ليس بسهلٍ عليك

— نعم ولكنَّ النتيجة ستكون وفق المراد . ولا يخفى عليك اني بقوة فراستي اخترت هذا المكان منشأً لمرقبنا السياسي قبل شهر الحرب بثلثة اشهر وما لبثت بعد ذلك ان سعيت في ابلاغ ذلك القائد انني تمكنتُ بسبب ضعفك — ضعفك انت — من الوقوف على اسرارٍ تتعلّق بالمسائل الحربية ثم اطنبتُ كثيرًا ببسالتهِ وشدة اقدامهِ فاثَّر فيهِ هذا الاطناب تأثيرا بليغًا وارتاح من جرأتهِ الى الاطلاع على هذه الاسرار من غير معاناة شيءٍ من الاخطار . وقد خيَّم بفرقتهِ ليلة امس على مقربةٍ من اسكي زهرة وهو في اشد الاحتياج الى الزاد ويهمهُ جدًّا الالمام بحركاتنا . ومن هذا يتضح لك اني بحسن تدبيري اغريتهُ بان ينصب لي شركاً لا بدَّ ان آخذهُ فيهِ

— وحق مار نيقولا ! ان الشيطانة الجميلة آية في الحذق والذكاء ومنقطعة النظير في السياسة والدهاء . وعندي ان هذا هو الشرك الوحيد الذي بهِ تتمكنين من اصطيادهِ . ولكن هل انت واثقة بقدومهِ ؟

— اتوقع على يد رسولي الخاص علمًا يثبت ما اقول

— وكيف توفقت الى هذا المسعى الحميد ؟

فاطرقت هنيهةً ثم اجابتهُ بلهجةٍ شفَّت عن مزيد الاسف

— كل ذلك لكي ارتج مسرتك واغنم رضاك وافوز بحريتي . انني عللت نفسي بالمنى والمطامع حتى خيبت تلك الخبيثة آمالي وكذبت ما كنت احلمُ من الاجتماع بذلك العزيز الغالي . ولستُ اوجس بعد فقدهِ خوفًا ولا ارهب خطرًا ولا ارى امامي ما يقتضي احترازًا او يستوجب حذرًا . وسأظلُّ كاليهودي التائهِ جوَّابة آفاق واقطار اقضي حياتي بالرحلات والاسفار هاجرة مضاجع الحب والراحة والسلام ورائدة فيافي القلق والخصام حتى اجد

الى قضاء وطري سبيلاً او يقضي الله امراً كان مفعولاً

ولست أُبالي ما يكن فليكن وهلْ يكونُ بهِ موتي فذا منتهى الامل

ثم وارت وجهها بين يديها وقد أُرتج من شدة التأثر عليها . وانقطع حديثها بدخول خادم يرفع بيدهِ رقعة الى البرنس سكولوف فتلا فيها اسم المستر رتشرد سافيل وقرينتهِ وقال

— هوذا ضيفانا المنتظران قد حضرا ايها البارونة وهما المستر سافيل ابن الجنرال سافيل المقترن حديثاً بكاترينا مدلتون ومتى اجتمعتِ بهما ورأيتِ ما فيهما من خفة الروح وظرافة المعشر عجبتِ من لياقة اقترانهما وقلتِ " وافق شنٌّ طبقة "

ثم التفت الى الخادم وقال : —

— اخبر المستر سافيل وقرينتهُ ان البرنس سكولوف والبارونة التدورف في انتظار تشريفهما

الفصل الحادي والعشرون

دك سافيل

وبعد ظهر ذلك اليوم جلس المستر سافيل وقرينتهُ في قاعة قصر كرستوف في دوه كوي قرب اسكي زهره عند مضيفيهما البرنس سكولوف والشيطانة الجميلة . وبعد الفراغ من عبارات التعرُّف والتحيات المعتادة قال سكولوف مخاطباً السيدة سافيل

— في اجتماعنا الليلة الاخيرة ايها السيدة بذلتُ جهدي في ان انال منك وعد تشريفكِ لي في نيس . ولم اكن اتوقع انك تطوفين العالم حتى توفيني الوعد هنا . على ان هذا لا يحول دون استقبالك بالترحيب والتأهيل وايفائك حقكِ من الثناء الجميل

— شكرًا للطفك العظيم ايها البرنس ولقد قدمنا عليك لاجل تذكيرك الوقت الذي شرتَ اليهِ لعلك تودُّ ان تلقي دلوك معنا في الدلاء وتشاركنا في ما وفقنا لهُ زهرة عمر المسرة وغرَّة ايام الصفاء

فاجابها البرنس : —

— اني مستعدٌّ لامتثال كل امر منكما واظنني انوب في هذا عن حضرة البارونة ايضاً

— بلا ريب

فقال دك سافيل : —

— لايخفى عليكما انني برّا بعهد الصداقة المكرم واحتراماً لشأن الاخاء المقدس اتيتكما مستقصياً مستنجداً . وقد المع البرنس الى اجتماعهِ الاخير بقرينتي وليلتئذٍ مثلت فاجعةٌ صادعة انجلت عن تلف احسن رجل في العالم — اعني بهِ القائد او بين غودارد

فقالت الشيطانة الجميلة : —

— غودارد !

ثم انحنت الى الامام وحدقت في وجهِ دك سافيل بعين ترجمت عما تعجز عن بسطهِ الاقلام فقالت كتي : —

— لعلكِ سمعتِ عن هذه الحادثة ايها البارونة اما انا فقد شهدتها وحقاً انها كانت هائلةً جداً

فحنت البارونة رأسها ولم تفه بكلمة واستأنف سافيل كلامهُ : —

—ولاجل تنزيهِ ذكر صديقي الميت من اوضار هذه الوصمة وتطهير اسمهِ من اقذار تلك التهمة وطنتُ نفسي على السعي في اثبات جناية متهميهِ الاشرار في شر مكيدة وافظع ائتمار . وليس بخافٍ عليكما ان القائد غودارد كان قد اتهم بالخداع في اللعب بمنزل اللورد ارلنفورد

فقالت الشيطانة الجميلة — :

— لكنهُ كان يسهل على القائد غودارد ان يبطل هذه التهمة

فاجاب دك سافيل : —

— وهنا سرُّ المسألة . اذ ظهر بعد الفحص انهُ كان معهُ ورقة ابى اظهارها . واختفاه " روا السباقي " — لانهما كان يلعبان " الايكرتيه " — قوّى جانب التهمة مع ان كل واحدٍ منا تحقق ان اللورد ارلنفورد كان مطلعاً جيداً على تنقية الورق فضلاً عن انفتاح عيون مساعديهِ في المراقبة والملاحظة وهما الماجور هوبر كرنر وشقيقتهُ السيدة املي دشتون

فقالت الشيطانة الجميلة — :

— املي دشتون ! انها هنا عندنا

— هنا ! الآن ! ارجوكما ان لا تطلعاها على شيء من غرضنا في مجيئنا اليكما

فقال البرنس سكولوف : —

— ساسعى في حراسة الباب لكي لا يدخل احدٌ علينا فجأةً

ثم نهض سائراً نحو الباب وفي اثناء مروره بالشيطانة الجميلة أسرَّ اليها قائلاً " انفذت

امرًا الى كابيودوفتش ان يُعدَّ حرسًا يستقبل زائرنا هذه الليلة "

فقالت الشيطانة لدك سافيل : —

— اراك موجهًا تهمة قوية نحو اللورد ارلنفورد

— انني على يقين من كل ما عندي عليهِ — على يقين تام ولكنني احتاج الى بينات تحمل غيري على الاقتناع نظيري ولي امل انكِ ايها البارونة تأخذين مع البرنس بيدي وتعضدين مسعاي فتغنمان من اهل الانسانية ثناءً وشكرًا . ومن الله ثوابًا واجرًا

— لكنني لم اسمع قط باللورد ارلنفورد فبماذا افيدك ؟

— نعم ولكني عن تاريخ جون فاين في بطرس برج اطلب افادتكما

فقالت الشيطانة منتفضةً : —

— جون فاين !

قالت الشيطانة هذا ولكن ليس بمزيد التعجب فقط بل بشهقةٍ شديدة روَّحت نفسها بانفاس الرجاء وقشعت عنها سحب الغم والكآبة . فوقف سكولوف يرقبها وقد غشيتهُ سحابة قلقٍ كثيفة . ثم سألها سافيل : —

— هل تعرفينهُ ؟

— اعرفهُ ! آه تمامًا ! لانهُ كان سبب فاجعةٍ هائلة وقد كفر بها بحياتهِ عن خيانتهِ ففي كل وادٍ اثرٌ من ثعلبة

— لقد اصبتِ في جملتك الاخيرة واما قولك انهُ كفَّر عن خيانتهِ بحياتهِ فليس بصحيح لانَّ جون فاين حيٌّ وهو الآن اللورد ارلنفورد ومن المحقق انهُ انتحل هذا اللقب انتحالاً او هذا الرجل الذي جرَّ الوبال على القائد غودارد ؟ ففي بطرس برج اسلم رجلاً بريئًا — للموت — رجلاً كان محبوبًا من الجميع ولم يرتكب قط اثمًا — وصرع امرأتهُ وولدها بالضربة نفسها . فحسنًا فعلتما بمجيئكما اليَّ لاني استطيع ان افيدكما كل ما انتما في حاجة اليهِ

واذ ذاك دخل خادم واخبرها برجوع كاتم اسرارها فطلبت دخولهُ ولما جاء قدَّم اليها رقعة فقرأتها واشارت اليهِ بالانصراف ثم التفتت الى دك سافيل وقالت : —

— ارجوكما ان تمهلاني الى غد فاطلعكما على جميع التفاصيل المهمة اذ قد عرض لي شغل شاغل حال دون تفرغي لا جابة سؤلكما في الوقت الحاضر فمعذرة منكما

ثم اهابت بالخادم وقالت لهُ : —

— اذهب بالمستر سافيل وقرينتهِ الى مخدعيهما — الى اللقاء ايها الضيفان المكرمان

وبعد خروجها التفتت الى البرنس وقالت : —

— هوذا قائد الفرقة الطيارة على الباب خارج الدار فاتبعني

ثم سارت الى غرفتها الخاصة وسار البرنس في اثرها وكانت هذه الغرفة فسيحة تشرف على دكة او سطح وقد أُنيرت بمصباحين كبيرين النقدا انقادًا ساطعًا وحولا ظلام الليل نورًا لامعًا وبعد ما اغلقت البارونة الباب قالت للبرنس : —

— هوذا القائد المعهود هنا وسأُدخلهُ من هذا الشباك فعليك ان تجعل رجال كابيودوفتش يحيطون بالبيت حتى اذا فرغت من الوقوف على كل مقاصدهِ ابديت لكم علامة بطلقةٍ من غدارتي هذه

ثم دنت منهُ وسألتهُ بمعنة نظرها فيهِ : —

— قل لي الآن ماذا تعطيني جزاء اسر هذا الرجل ؟

فاجابها سكولوف : —

— لاعطينَّكِ مهما اردتِ فقولي ماذا تبتغين ؟

— اروم منك حياة انسان — اعدامها او العفو عنها — حينما أُريد وكيفما اشاء !

— ايتها البارونة !

— خلِ عنك الآن الدهشة والتعجب وعدني — رحماك — عدني بحق كل مقدَّس عندك

— وتربة اجدادي الكرام لاعطينك ما طلبتهِ على التمام

— اذهب الآن وادعُ لي بنجاح المسعى

الفصل الثاني والعشرون

المكيدة

ولما خرج البرنس سكولوف وسمعت البارونة باذنها صوت اقدامهِ ينقطع خارج الرواق عمدت الى الشباك ورفعت زلاجهُ وهي تقول : —

— اخيرًا . اخيرًا تمكنت من الانتقام وادركت غاية القصد ومنتهى المرام . انهُ حيٌّ ! جون فاين باق حيًّا ! واطربا . ولكن كيف نجا كل هذه السنين الطوال ؟ لا بأس ! آه لو كنتَ باقيًا حيًّا ايها القائد غودارد فكنتَ ترى كيف أُبرّرك مما اتّهمتَ بهِ كذبًا وبهتانًا وظلمًا وعدوانًا ! على انهُ حسبي تشفيًا من ظالميك واثئارًا من العادين عليك ان أُري العالم ان شرفك الباذخ الذي يطاول الاطواد قدسلب منك على يد خائنٍ وغدٍ بل شرّ الخانة الاوغاد وسأُقدم على ذلك من صباح غدٍ بملء التأهب والاستعداد . فلتبتهج عظامك داخل رمسك حيثهُ شآبيب الرحمة والرضوان ولتطب في عالم الارواح نفسك انها اطيب نفسٍ حلت في جسد انسان

ثم استوت على كرسيها بجانب النار وادارت ظهرها الى الشباك ووارت رأسها بين يديها واذا بالشباك قد رُفع من الخارج رفعةً صحبها صوت خفيف فانفتح ودخل منهُ رجل بلباس احد اركان الحرب مزرَّرًا الى عنقهِ ولثام مسدول على وجههِ . وكانت احدى ذراعيهِ مجروحةً وقد اسندها الى صدرهِ ورجلاهُ مشدودتين الى الركبتين بنعلين عليهما آثار ركوب طويل شاق

فرفعت البارونة يديها عن وجهها والتفتت اليهِ على مهل متبسمةً ولما وقعت عيناها على عينيهِ اجفلت مذعورة ونهضت على قدميها صارخةً : —

— او بين غودارد ! أنت ! حيٌّ ! هنا وتدعى بياض مراد ! فما معنى هذا ؟

اما هو فلم يكن اقلَّ منها دهشة ورعبًا . ولذا تقدم نحوها صائحًا : —

— البارونة التدورف ! اصحيح هذا ؟ يالله : اذًا رأيتكِ ثانيةً ! افليس هذا حلمًا ؟

فخفَّت البارونة باسرع من وميض البرق الى الباب ومكنت ايصادهُ ثم عمدت الى الشباك واعادت زلاجهُ ورجعت الى غودارد واسرت اليهِ بتنهدٍ عميق : —

— ليتنا لا نستيقظ من هذا الحلم

فقال ما معرَّبهُ : —

ولما التقينا بعد طول افتراقنا توهمت ان هذا اللقا بيننا وهمي

فكلفتها اظهار ذلك قائلاً بعيشكِ قولي لي اما نحن في حلمِ
فقالت بلى . لا . لستُ أعلم فالذي توهمتهُ لاشك عندي وفي زعمي
وان تكُ ضمتنا بحلمٍ يدُ الكرى فطل يا كرى وارفع علينا يدَ الضمّ

ثم اصابهُ ذهول أنساهُ الغرض الذي جاء لاجلهِ فقال : —

— آه لو علمتِ كم توسلت الى الله ان يفسح في اجلي حتى اراكِ مرة أُخرى ! وقد كان هذا الرجاء شغلي الوحيد طول مدة افتراقي عنكِ وانقطاعي لمجالدة الخطوب ومعاركة الارزاء وقد لمتُ نفسي اشد اللوم ورميتها بالحمق والغباوة على اذعاني لقولكِ وعدم بحثي عنكِ . نعم بحثت ولكن بعد مافات الوقت وكنت في بحثي اخيب من قابضٍ على الماء . ولما عزمتُ على الرجوع اليكِ لاعلن لكِ عدم استطاعتي انجاز ما وعدتكِ بهِ وجدتكِ قد ذهبت ولم تغادري وراءكِ اثرًا يدلُّ عليك او علامة تشير اليكِ

— رحماك اغفر لي يا اوبين ! ليتني عرفت هذا ! دعني اتكلم —

ليس الآن ! ليس الآن . بل دعيني اخبرك اوّلاً — قبل أن تلمس شفتاي شفتيكِ — باني تلفتُ وامتهنتُ واصبحت مضغة الافواه ولماظة الالسنة والشفاه وتعرّيت مما كنت مزدانًا بهِ من الصيت والجاه حتى شرفي — لا . لا . فهذا اطهر من ان تدنسهُ السنة الظالمين البغاة . لكنكِ تصدقينني اذا قلتُ لك اني لم اقترف ذنبًا يستوجب هذا الخذلان وانَّ كل ما اصابني محض ظلم وعدوان

خلِّ عنك هذا الكلام لانك تكسر بهِ قلبي

— الم يبلغكِ كيف هاجرت انكلترا ولِمَ ؟

— بلى — لكن الآن

— اتظنينني اثيمًا فيما اتهمت بهِ ؟

— اني اعلم براءة ساحتك وكان العالم كلهُ يعلم هذا ايضًا لو جلوت المبهم ورفعت التهم

— ولكن الم تعلمي اني لم اقدر على شيء من ذلك ؟

— انك مخطئ ! ولا بدَّ انك كنت حينئذٍ مختلَّ الشعور حتى تغاضيت بهذا المقدار وجعلت سبيلاً لوقوعك بهذه الزلة واخذك بهذا العار . اجبني ! لماذا اراك ساكتًا ؟

ثم دنت منهُ والقت يدها على ذراعهِ المجروحة فعلَتْ وجههُ في الحال صفرة الموت وتلوّى من شدة الالم . فصاحت :—

— ماذا ؟ امريض انت ؟

— لا . لا . لاشيء يوجب الخوف. أعطيني قليلاً من الماء . لقد اصابني جرح خفيف من بضعة ايام . وفيما كنت راكباً الى هنا عثر بي جوادي واذ لم استطع التحوُّط بسوى يدٍ واحدة سقطت عن ظهرهِ الى الارض واظن ان سقوطي هذا نكأ الجرح فأساله . ولكن لاتجزعي . فلست اشعر بالمٍ . ومن العيب ان كبوة طفيفة كهذه تعرضني للسقوط . ولعلَّ ضعف جسمي بداعي النزيف حال دون تمكني على ظهر الجواد وافضى الى سقوطي . عمَّ سألتني ؟

— قل لي اولاً اما انت احسن حالاً الآن

— بلى . بلى . اسمعي . سألتني لماذا لم اجل المبهم واوضح كيف حصلتُ على تلك الورقة والجواب اني امسكت عن ذلك حرصاً على شرفي او على شرف امرأةٍ وقد نجم هذا عن مكيدة لم استطع بيانها بالدليل . وهذه المرأة كانت مظلومة الى حدٍّ يتظلم منهُ الظلم وتنصدع لهُ الصخور الصمّ . وقد عرفتها منذ الطفولية وهي بائسة لامنقذ لها ولا معين . افتعجبين بعد هذا من اني رضيت تحمُّل العار في سبيل خلاصها ؟

— لكنها هي اخطأت في قبولها بهذا . وكيف أمكنها الصبر على رؤية تلفك وسقوطك ؟ ان هذا منتهى القساوة !

لا لاتُسرِفي في لومها لانها غير ملومة وهب انها كانت ملومة فلا فائدة منهُ الآن . وقد اطلعتك على هذا لاني لم اقوَ على الافتكار بوجود ما يوجب الحذر بيننا . فقد كان معي ورقة مكتوب عليها بخط يدها جملة ليست في ذاتها شيئاً ولكنها كانت كافية لتمكين الالى نصبوا لنا المكيدة من ادراك بغيتهم . وهذا هو سرُّ التهمة . فهل تثقين بي الآن ؟

— كما بالله !

— ياحبيبتي !

ثم تعانقا عناق اهل الاشواق وتشاكيا تباريح الفراق . لكنها اذ شعرت بألمهِ الذي نمَّ بهِ تضوُّرهُ على رغم تجلدهِ صاحت :—

— اراك متألماً شديداً فحتى متى تخفي ذلك عني ؟

— يظهر ان الجرح بالغ وقد آلمني اكثر مما ظننت وسببهُ نقصان الدم فلا تدفني مني لئلاَّ يروعك الامر

واذ ذاك طرق اذنها صليل اسلحةٍ خارج الغرفة استدعى انتباهها فصاحت : —

— ويلاهُ دنا الخطر ! يجب ان تجهد نفسك وتوطّنها على التجلد — على الفرار . ويلي فقد حاقت بك اسرار المكيدة ! الست قادراً على المشي ؟ اجتهد . تعالَ الى هنا الى مخدعي فليس

لك غير هذه الوسيلة للنجاة

— ما سبب وجودكِ هنا ؟ واين من جئت لكي اراها — الشيطانة الجميلة ؟ وما هذا السرُّ الغامض ؟

— خلِّ عنك محاولة فهمهِ الآن لانك ستفهمهُ فيما بعد . اتبعني على الفور

— ما مرادكِ بهذا ؟ فاستُ —

ثم ارتفع صوت شيء في الرواق . فقبضت البارونة باسرع من رجع النفس على ذراعهِ المجروحة فخرَّ الى الارض من شدة الألم وسقط مغشيًّا عليهِ لا يفيق ولا يعي . ولما رأتهُ على هذه الحالة اطلقت غدارتها طلقين واخرجت غدارتهُ من غلافها والقتها على الارض بجانبهِ وغطَّت وجههُ بلثامهِ . وحينئذٍ قُرع الباب قرعًا شديدًا ودفع من الخارج بعنفٍ فانفتح ودخل البرنس سكولوف ولما رأتهُ صرخت : —

— اغثني — بعيشك انقذني ! فانهُ لما رأى نفسهُ قد وقع في شركي حاول الفتك بي فاطلقت غدارتي واذ حاول الفرار ولم اقدر على صدهِ اطلقتها عليهِ ثانية فخرَّ صريعًا

— لقد اخطأتُ في تعريضكِ لخطر هذه المقابلة وحدكِ . وسأوصد الباب حتى لا يدخل احد قبل نقلهِ من هنا

وفيما هو متقدم نحو الباب بدا لهُ ما ارجعهُ فقال : —

— لعلهُ يكون مجروحًا فقط

قال هذا ودنا منهُ ووضع يدهُ على قلبهِ المنقطع عن الحركة وهمَّ بالرجوع عنهُ واذا بهِ نظر الغدارة على الارض فرفعها بيدهِ وصوبها نحو ذلك الصريع الذي لاحراك لهُ وقال : —

— الاصوب ان نتحقق موتهُ

— وفيما هو على اهبة اطلاقها وثبت الشيطانة ووقفت فوق الجسد المطروح وحالت بينهُ وبين البرنس وقالت : —

— لا . لا . كذبت عليك ! فقد خدعتكما كليكما !

ثم اماطت اللثام عن وجه غودارد فنظر اليهِ البرنس وصرخ :

— من هذا ! القائد غودارد !

— نعم ! نعم ! القائد غودارد ! اسمع . فلاجل أسر هذا الرجل وعدتني حياة انسان — اعدامها او العفو عنها حينما أريد وكما اشاء ؟ فاطلب حياتهُ

الفصل الثالث والعشرون

وجهاً لوجهٍ

اما سكان المرقب السياسي فقضوا يومين كاملين في هياجٍ شديد واضطراب ما عليهِ مزيد وكان اول امرٍ اتاهُ البرنس سكولوف بعد رجوعهِ من عند الشيطانة الجميلة انهُ سعى على الفور في ارسال السيدة املي دشتون الى مدينة نيس. وقد اظهرت في البداءة عدم الميل الى هذه الرسالة لكن سكولوف تغلب عليها بما لديهِ من الوسائط وعللها بالاماني والآمال حتى اجابت طلبهُ بالطاعة والامتثال. ثم امدها بالوسائل اللازمة للرجوع باللورد ارلنفورد الى لندن من غير ان يمكنها من معرفة ما حدث في مرقبهِ

اما دك سافيل وقرينتهُ فقد سرّا بهذه الحادثة العجيبة سروراً يعجز القلم عن وصفهِ . وكان اول شيء فعلتهُ البارونة وكني انهما انقطعتا للعناية بغودارد الذي قضى وقتاً ليس بقصير غائباً عن رشدهِ في هذيان عميق

اما البرنس فلزم السكوت ولم يلجّ في طلب ايضاح هذا المشكل ولا الحّ في رفع النقاب عن محيّا هذه الخفايا بل صبر على الشيطانة صبر الكرام وانتظر حتى طارحتهُ الكلام

وكان ذلك بعد ما ابلّ غودارد وتعافى فدعت البرنس اليها فدخل وهي جالسة امام النار فمدت اليهِ يدها فقبلها بكل احترام . ثم قالت : —

— اجلس ايها البرنس فقد حان أن أُطلعك على ما انت في اشتياق الى معرفتهِ من زمانٍ طويلٍ

— بشرط ان يكون ذلك عفواً منكِ بلا اضطرارٍ ولا اكراه

— ارعني سمعك فاحدثك بهِ بملء الرضى والمسرة

— تكلمي فكلي مسامع

— هل ترتاب في ان قائد الفرقة الطيّارة واوبين غودارد كانا شخصاً واحداً ؟

— كلاَّ

— الم تثق بانهُ ميت ؟

— بلى

— وماذا كانت نتيجة امرهِ هنا ؟

— كانت بداءة الخاتمة ومنع الفرقة الطيّارة من نيل مرادها في ايصال الذخائر والمؤن الى من هم في اشدّ الاحتياج اليها وذلك كلهُ نتج عن قبضنا على قائدها . ولا يخفى عليكِ ما ترتّب على ذلك من الفائدة التي لا تُثمّن

— اذًا هو عمل عظيم جدًّا

— نعم وهكذا الثمن الذي بُذِل في سبيلهِ

— اي ثمن تعني ؟

— حياة قائد الفرقة — او بين غودارد — اعدامها او العفو عنها كما تريدين ومتى تشائين

— آه ان هذا كان من حسن طالع اللورد ارلنفورد ! فلو لم اطلب منك ان تُبقي على غودارد لطلبت منك إعدام ارلنفورد

— حقًّا لقد اوقعتني ايها البارونة في بحر حيرةٍ عميق لاقرار لهُ . فعند قدوم المستر ساڤيل وقرينتهِ اعلنتِ انك تجهلين اللورد ارلنفورد ولا تعرفينهُ . وبعد خمس دقائق احدث فيكِ ذكر اسمهِ ارتعادًا لم اعهد لهُ فيكِ نظيرًا من قبل . اذًا اهتمامكِ مصروف نحو جون فاين — المدعو الآن اللورد ارلنفورد . ويظهر ان لديك اسبابًا تبعثكِ على بغضهِ وحب الانتقام منهُ . فهل لكِ ان تطلعيني على هذه الاسباب لأني اقدر أن أُساعدكِ وأُريد

— أنت ؟

— نعم فاللورد ارلنفورد — او جون فاين — كان مستخدمًا يومًا ما في بوليس بطرس برج السري —

— أعلم هذا !

— وقد طرد من منصبهِ لانهُ اتخذهُ وسيلة للانتقام —

— أعلم هذا !

— وقد اتهم رجلاً بريئًا بمواطأة دورسكي على المبادىء النيهلستية

— أعلم هذا !

— تعلمين ! تعلمين ! كيف تعلمين ؟

— تسألني كيف اعلم ؟ تسألني لماذا آليت على نفسي الانتقام من هذا اللورد ارلنفورد ؟ خلِّ عنك هذا كلهُ واسألني بالاولى ذلك السؤال الذي قضيت في سبيل حلهِ وقتًا طويلاً وانفقتَ من اجلهِ مالاً جزيلاً ولم تستطع اليهِ سبيلاً . اسالني عن نفسي لعلك تعلم من انا؟

— لله انتِ ! فماذا تعنين بهذا ؟

— اعني اني انا البرنسس كاريتا غالتزن !

— يا قديسة كاترينا ! ! !

قال هذا البرنس سكولوف ونهض يتفقد الابواب ليتحقق عدم وجود ثالثٍ لهما يسترق حديثهما ورجع الى جانبها وانحنى قليلاً واخذ يتفرَّس في وجهها وبعد ما تأكد انها هي البرنسس كاريتا بعينها قبض على معصمها وقال لها بصوت منخفض واضح : —

— وانا الكسس دورسكي

ثم استحوذ عليهما سكوت دام بضع دقائق . فنهضت البرنسس غالتزن (لندعها الان باسمها الحقيقي) وضغطت صدغيها بيديها وشخصت في ذلك الرجل الذي بعد ما أمنها على سرّ حياتهِ العظيم عاد الى مكانهِ وخاطبها : —

— اذًا اتضح الان سرّ آلة الكتابة السريَّة

— وهل يعلم ابن ديمتري كيراتيف شيئًا عن هذا الامر ؟

— لا يعلم احدٌ سوى البرنسس غالتزن وسكولوف رئيس البوليس السري

ولماذا أخبرتني ؟

— لان لي عندكِ رسالة

— نعم وهذه هي

ثم حلَّت عرى صدرتها واخرجت طرساً مطويًّا بحرص من غلاف صفيق وبعد ما نشرتهُ وضعتهُ امام سكولوف قائلةً : —

— اما هو مكتوبٌ بخط يدك ؟

— فاجابها مصحح — بخط يد الكسس دورسكي النيهلستي وقد فقد من بين اوراق كيراتيف السرية . ولاجل الحصول عليهِ سعيت في ان خلفتُ ذاك الرئيس في منصبهِ . فانقطعت منذ ذلك الحين للتفتيش عن هذه الرسالة . ولهذه الغاية نفسها جعلت ابن كيراتيف كاتم اسراري . فلو عرفت من البدء انها عندكِ لأرحت نفسي من تحمل اتعابٍ كثيرة

— انها رهن امرك الآن

— الآن ؟

— قل لي بعيشك كيف اتفق أن يبقى جون فاين حيًّا مع انهُ شاع قبلاً انهُ قتل في تخوم بولاندا

— نعم هكذا شاع ولكنهُ اتضح اخيرًا ان هذه الاشاعة كانت كاذبة وان الذي قتل

انما هو خادمهُ وقد قطعهُ اللصوص اربًا تعذَّر عندها معرفة القتيل . اما جون فاين فان علاقتهُ بفرقة البوليس الثالثة (السرية) مكنتهُ من الوقوف على المكيدة المنصوبة لهُ فركب سفينة طواف انكليزية من ظاهر قلعة شلسابرج ولما بلغ انكلترا استعان على اخفاء امرهِ بلقب اللورد ارلنفورد الذي انتحلهُ انتحالاً والغى بهِ اسم جون فاين . ولكني وقفت نفسي على تأثرهِ حتى احطتهُ بشبكة الوسائط الفعالة ومتى حان وقت اقتناصهِ فلا يرى لهُ مفرًّا من يدي فابطش بهِ وانال مقصدي

— ومتى يكون ذلك ؟

— هل يهمك التعجيل بهِ ؟

— يهمني جدًّا واودُّ لو في الامكان ان يكون الآن

— وكيف صبرتِ هذه السنين الطوال ؟

— مكرهة غير مختارةٍ . هذا فضلاً عن اني لم اكن عالمة ببقاء هذا الاثيم حيًّا

— متى انتهت الحرب وصار القائد غودارد قادرًا على الذهاب معنا الى لندن فحينئذٍ نشرع في تمثيل الفصل الاخير من هذه الرواية . وقد ارسلت السيدة دشتون الى نيس وجهزتها بالمقدار الكافي من المال لاغراء ارلنفود وحملهِ على الرجوع الى لندن وجعلهِ في حوزتنا . وعهدت اليها بالبحث عن تفاصيل موت غودارد (الذي كان ميتًا فعاش) وحقًا اني كنت مزمعًا ان أقضي عشر سنين في محاولة الحصول على ذلك لكي أُريك شدة رغبتي في اتمام مايرضي الشيطانة الجميلة . لكي اريكِ اني وان لم اقدر ان اكون محبكِ استطيع ان ابقى صديقكِ وحليفك . وستدوم قوتي وقدرتي وكل مالي من النفوذ رهن اشارتك كما لو كنتِ انت لي . هذا ولست انا ممن قلبهم في كمهم ولكني احبك ايها البرنس حبًّا يقصرُ عن وصفهِ ابلغُ الكلام . اما الآن فقد قضي الامر والأجدر بنا أن نطوي شقة هذا الحديث ونتكلم عن شيء آخر

ولما فرغ من كلامهِ نهضت الاميرة ودنت منهُ وجثت عند ركبتيهِ واخذت يدهُ بين يديها وقبلتها ذارفة عليها دمعةً أحرَّ من الجمر فعرا سكولوف هزة كما انتفض العصفور بلَّلهُ القطر

ثم رفعت رأسها ونظرت اليهِ فانحنى بملء الاحترام وقبَّل جبينها قبلة كانت الفاتحة والخاتمة

الفصل الرابع والعشرون

زَرْعُ الريح

وبعد انقضاء الحرب اجتمع ممثلو هذه الرواية في لندن لعرض الفصل الاخير منها . وكان غودارد قد شفي من جرحهِ البالغ ورجع اللورد ارلنفورد من نيس واخذ البرنس سكولوف يهيء الشرك الذي اعدهُ للتبييت على فريستهِ في اقرب وقت

فنعود بروايتنا على بدء في غرفةٍ صغيرةٍ بمنزل املي دشتون حيث لم يكن فيها في مستهل التمثيل سوى شخصين احدهما يروح ويجيء في عرض الغرفة مضطربًا والآخر جالس على كرسيهِ هادئًا . وكان الاول اللورد ارلنفورد والثاني الماجور هومر كرتر شقيق املي

فوقف ارلنفورد بغتة ودنا من كرتر وقال: —

— ايُّ شيطانٍ بعثك على السماح لاملي بالعودة الى انكلترا في مثل هذه الاوقات الصعبة ؟

— لكنك تعلم ياصديقي العزيز انهُ ليس لي عليها من السلطة اكثر مما لك . ويظهر انها تهتمُّ بتقرير الامر وفصل الخطاب . وقد الحت عليَّ في ذلك اشدَّ الالحاح . ولقد طالما حذرتك منها وانذرتك بشرها حين يمسها الغيظ ويحركها الروح

— لكني قادر منذ الآن ان أُوفي كل ماعليَّ من الديون واهاجر الى بلاد الجزائر

— هذا اذا وجدت املي سهلة القياد لاتعارض في انفاذ هذا المراد

— عليَّ تدبير الامر فلستُ اظنها تسبب لي تعبًا . أنظر ياكرتر ! اروم منك ان تذهب الى المستر ريس وتخبرهُ اني لا استطيعُ الذهاب اليهِ اليوم . وربما ذهبتُ غدًا . على انهُ اذا كان جوادهُ كما وصفهُ لي فاني اشتريهِ

— لكنك قلت لي انك ذاهب الى الجزائر

— نعم لكني اتوقع الربح في السباق القادم

— فقام الماجور وخرج . ولم يلبث ارلنفورد وحدهُ طويلاً حتى دخلت املي دشتون فاقبلت عليهِ فاتحة ذراعيها وقالت : —

— الست مسرورًا برؤيتي ياجاك ؟

— وددتُ لو انكِ لم تأتي

يالك من جافٍ غليظ الطبع قاسي الفؤاد ! أهكذا تقابلني بعد طول البعاد يانافض العهد وقليل الوداد

ثم اقتربت منهُ ووضعت يدها على كتفهِ . اما هو فتملص منها معرضاً وقال : —

— اعلمي ياعزيزتي انهُ كان يجب عليك ان لا تأتي الى هنا لانكِ بقدومكِ هذا تهدمين كل مابنيتهُ . فلماذا لم تبقي في باريس ؟

— لان حماقتي حملتني على الاهتمام بك وضعفي اوهمني انك تهتمُّ بي . فاعلم يا جاك ان اليوم الذي اتحققُ فيهِ انك عامل على خذلي وخداعي يكون عليك اشأم الايام . وأخشى انك تحرجني فتخرجني الى مالا ارجع عنهُ ولو تجرعتُ كأس الحمام . فلا تضيقنَّ عليَّ النطاق لاني في ساعة غضبي اكون مرَّة المذاق وصعبة لا أُطاق

— املي ! املي ! خلي عنك التقعر فلسنا في شيء من التأنق في الصوت والافتنان في الحركات والاشارات ولا حاجة لك ان تذكريني احدى ممثلات الروايات !

— ولكني عندما اشرع في تمثيل " دوري " اضطرك الى الانتباه ولو بالرغم والاكراه . على انهُ قبل حلول الوقت اروم منك ايضاح امرين . فقد جئتك متوقعةً انك تسرُّ برؤيتي لاني لم اصدِّق ما سمعتهُ عن علاقتك بتلك الفتاة الاميركية . والآن اطلب ان اسمع منك ما يثبت هذه الاشاعة او ينفيها . لا ارتاب في انَّ دناءتك تحملك على مخادعتي وانما ارتاب كل الارتياب في ان يبلغ منك الغرور مبلغاً يدفعك الى التعريض بنفسك لمغبَّة عداوتي وعاقبة حنقي . ولكن مالي ولهذا كلهِ . فلم اجئ الى لندن للايعاد والتهديد . فقل لي هل انت عازم على الاقتران بتلك الفتاة ؟

— كلاَّ

فسرّي عن املي وقالت : —

— هكذا كانت ثقتي بك . انتَ اجلُّ من ان تفعل هذا يا جاك . انت اجلُّ من ان تُقدم عليهِ . لم تذهب اتعاب سفري سدى . حقًّا لقد زال قلقي وصفا جوُّ قلبي من الكدر مع اني من البداءة لم اصدِّق هذا الخبر . لكني لم استرح حتى تحققتُ الامر عياناً فنعمَّا انت رجلاً وبُورِك فيك انساناً

— والآن يا أملي فلنضع حدًّا لهذه الامور . واعلمي اني راجع الى امرأتي

— ماذا : أبجدٍّ تكلمني ؟

— نعم

— وانا بجدٍّ اقول لك انك لن تستطيع هذا ايضاً !

— اليكِ عن الطيش والرعونة واصغي الى كلامي بهدوء وسكينة فانَّ احدى عمات زوجتي وهبتها كل ما تملكهُ ونصحت لها ان تصالحني . فهل أُضيع هذه الفرصة السانحة ولا انتهزها واحوالي كما تعلمين رديئة جدًّا ووكيلي لا يستطيع ان يمدَّني بمليم واحد . اذًا وافقيني على هذا الامر ولكِ مني خير الثناء واطيب الشكر

— او تخالني رهينة امرك . او في افتقارٍ الى خير ثنائك واطيب شكرك . أَقلعْ — نعم أَقلع عن هذا المقال ولا تعللنَّ نفسك بالمحال وقد آن لك ان تصغي لي فاسمع فاحدثك بالواضح الجلي . اي جاك ارلنفورد اعلم اني طالما وطَّنت نفسي على احتمال كل مشقةٍ وعناء لاجلك ومعك — على طريق المحبة . اما الآن وقد اتضح لي انك اتخذتني وسيلةً لقضاء مصالحك فاسمع ما عندي عليك . قد امتهنت نفسي لاجلك كثيرًا واشبعتها تحقيرًا وتعييرًا فينبغي لك ان تجزيني على هذا الاحسان بالاحسان ولتقترن بي مذ الآن

تعقلي يا املي ! فعلى الانسان ان يجعل غاية لمطمح نظرهِ ولا يتطاول على قصرهِ . وما كنت قط لابلغ هذا المبلغ من الجنون وانتهي الى هذه الدركة من الهوان . فلي بعض الاصحاب وينبغي ان اكون عندهم محترماً

— اذًا انا لستُ اهلاً لك ! أَنت الذي لا يقوى على دخول بيت احد الشرفاء الادباء في انكلترا — انت اللص — انت المنافق — انت "النصاب العيار" ! — أَنسيت اني اعرف كيف قضيت على غودارد بالخراب والدمار ؟

— لست ابالي بما تعرفين لاني اردت الاهتمام بكِ فأَبيتِ . ومعلوم ان المرأَة التي تستميل رجلاً متزوجًا الى محبتها لا تنال من هذه المحبة في النهاية سوى شر مغبتها . فانا باذل الآن غاية جهدي في استرجاع مقامي واحترامي في الهيئة الاجتماعية وبعد خمس سنوات ينسى الناس ذكر ماضيَّ ولا يعود احدٌ يعهدني في شيءٍ مما كنت عليهِ قبلاً . وكان يمكنكِ ان تدركي لاول وهلةٍ من تصريحي لكِ بعدم رغبتي في حضوركِ اني لا ارضاكِ —

واعترض ثمة كلامهِ دخول خادمٍ بيدهِ رقعة دفعها الى السيدة املي فتناولتها ومزَّقت غلافها بمزيد السرعة وطالعتها والغيظ يقيمها ويقعدها . ثم كتبت جوابها واعطتهُ للخادم فانصرف في الحال —

وبعد انصرافهِ ظهرت عليها لوائح الهدوء فقالت : —

— كنت اظنُّ ان كلاً منَّا يعرف الآخر جيدًا . ولكن يظهر لي ان كلينا أُتيح لهُ الآن

ان يطلع على ما كان يجهلهُ من قبل . فعزمك الجديد على استرجاع مقامك بين الناس غريبٌ جدًّا كما ان ماعزمت انا عليهِ الآن لاينقص عنهُ غرابة فبكل صراحة ارفض قبول ماعرضتهُ عليَّ

— يا عزيزتي املي ان اعظم ما دعاني الى التعلق بكِ توهمي انكِ على جانب عظيم من التعقل . فلستِ على شيء مما اعهدهُ فيكِ من قبل وقد اطلعتكِ طلع امري

— وبعبارةٍ اخرى انك تكرهني ! فالآن اخبرك بما انا صانعة. لست اقوى ان أُكرهك على الاقتران بي . لكني لا ادعك تقترن بغيري . فقد طالما شددت ازرك في مقاصدك الرديئة وارتطمت لاجلك في ادناس دنايا وارجاس خزايا لم يكن مال العالم كلهُ كافياً لاغرائي باغترامها واجترامها . وان كانت نفسك الأمَّارة بالسوء تسوّل لك انك قادر ان تقول لي " استودعكِ الله لم يبق لي من حاجة اليكِ " وتتوقَّع أنَّ هذا يكون ختام الامر فانت اكبر مغرور واعظم جاهلٍ بمثل هذه الامور . أو هذا ظنك في امرأةٍ متعقّلة — كما تفضّلت بوصفك اياي — كانت على الدوام مستعدة لاستجلاب مسرتك وتكثير موارد الخير عليك ؟ وكانت وهي توجّه قواها العقلية نحو ما فيهِ صلاحك ومنفعتك تعدُّ متعقلة محبوبة ولكن حين وجَّهتها قليلاً الى الاهتمام بمصلحة نفسها حسبتها طائشة رعناء . أأكون متعقلة اذا سكتُّ عنك الآن وهمت على وجهي في الارض متروكةً وحدي لا منقذ لي ولا معين لكي تكون انت عضواً مكرماً في جسم الهيئة الاجتماعية ؟ يا للغرابة ! لقد ساء فألك وكذبتك نفسك

فنهض اللورد واخذ برنيطتهُ وعصاهُ وتقدم نحو الباب يروم الخروج فخفَّت اليهِ واحاطتهُ بذراعيها قائلةً : —

— جاك . جاك . لا تذهب على هذا المنوال . عفواً فقد غاظك كلامي . عدني انك لا تذهب

فاجابها بخشونة : —

— لقد حدثتك بكل ما عندي . دعيني اذهب دعيني اذهب ثم دفعها بيدهِ وخرج وفي اندفاعها زلَّت قدمها فسقطت بعنفٍ شديدٍ الى الارض وظلَّت هنيهةً كمن اصابهُ دوار ثم تنهَّدت تنهُّدًا عميقاً سرَّى عنها بعض كربها ونهضت خائرة القوى ضعيفة العزم حتى انها بالجهد استطاعت الوصول الى مكتبتها فلاحت منها التفاتة الى الرقعة الملقاة عليها فقالت بصوت جهير : —

آه يا جاك لو عرفتَ من ذا الذي ينتظر جواباً على الرقعة لكنتَ اشدَّ تبصراً واوفر تعقلاً — لكنك ستعرف عما قليل وتندم حين لا ينفعك الندم

ثم قرعت جرساً امامها وفي الحال دخل القائداو بين غودارد فاسرعت الى استقباله بعدما تغلّبت على نفسها واخفت تأثّرها من ذلك السقوط العنيف وقالت : —

— لا يسعك ان تصف شدة ابتهاجي برؤيتك . فقد كنتَ محسناً اليّ اكثر مما استحقّ وقد بقيتُ الى هذه الدقيقة كافرةً بجميلك وجاحدة لمعروفك

فاجابها متلطفاً : —

— مسكينة ! لِمَ اراكِ مضطربةً ؟ ماذا اصابكِ ؟ وهل استطيع مساعدتكِ

— انك دائماً مصدر هذه العواطف الشريفة يا اوبين فللهِ درك من مفضال كريم الشمائل ! وقد علمتُ مما كتبتهُ اليّ انك قادم للسعي في حمل ارلنفورد على الاقرار بما جناهُ عليك وتروم مساعدتي . ولا ريب في انك تقدر هذه المساعدة حق قدرها

— نعم لان كثيرين باقون مرتابين في براءة ساحتي . وستعقد هذه الليلة جلسة في بيت المستر بركز لاجل هذه الغاية وارجو ان تكوني من اكبر المساعدين لي . لانكِ تعلمين براءتي

— نعم اعلمها وسابرهنها . اذهب الآن فاني انتظر زائرًا . لاتلمني على اشتراكي في هذه المسألة فقد كان لي عذرٌ وهو محبتي لمن تعرفهُ . والآن — الآن — دفعني دفعةً صرعتني الى الارض ! آه !

— دفعكِ !

— نعم

— يالهُ وحشاً ضارياً !

— لا بأس . اذهب الآن . ومساء نلتقي

وبعد خروجهِ قامت مرةً ثانيةً الى مكتبتها واخرجت منها غلافاً ومزقتهُ بسرعةٍ لا مزيد عليها واخرجت منهُ ورقة لعب وهي " رَوَا السباتي "

وفيما هي تنظر اليها دخل الخادم وبيدهِ رقعةٌ فتناولتها متراخية متثاقلة وفي طرفة عين هاج غضبها اذ تلت على الرقعة اسم " السيدة ارلنفود " . فالتفتت الى الخادم وزعقت بهِ : —

— هل قلت لها اني هنا

— كلاَّ ياسيدتي بل اخبرتها باني سانظر

— اذاً قل لها اني غائبة

ثم نادتهُ بعد ما كاد يخرج : —

— قف . ماذا تريد مني — هذه المرأة — هنا في بيتي ؟

وبعد ما وارت الورقة في جيبها امرت الخادم بان يدخل الزائرة اليها وحين دخولها قالت لاملي : —

— لا ريب في انكِ قلقتِ لزيارتي هذه ايتها السيدة ويجب عليَّ الاعتذار عن تطفلي عليكِ . لكنني لم اجد مندوحةً عن مقابلتكِ . ان — ان لي حاجة اطلبها منكِ

فاشارت اليها املي بما دلَّ على اصغائها الى كلامها واستتبعت تلك قائلة : —

— بلغكِ نبأ الاجتماع الذي ينعقد هذا المساء لاجل تبرئة اوبين غودارد

— نعم

— واظنكِ تكونين فيهِ

— نعم

— سمعتِ اني عازمة على الرجوع الى زوجي اللورد ارلنفورد

— نعم

— ان مقام اللورد موقوف على ما تقولينهُ أنتِ ولا اجهل حرج موقفك في مثل هذه الاحوال وارجو انهُ يأتي احسن اصلاح ممكن . وقد جئتكِ الآن متوسلةً اليكِ ان تمسكي عن التشديد عليهِ جهدكِ

— ماذا ترومين ان افعل

— مرادي ان لاتحاربيهِ بتلك الورقة

فمدت املي يدها الى جيبها واخرجت الورقت المعهودة ووضعتها امامها . فلما رأتها السيدة ارلنفورد صرخت :—

— هذا ما كنت اخشاهُ . ولا بُدَّ ان يكون القائد غودارد عازم على اظهار الورقة التي معهُ — المكتوبة بخطي . فارحمي زوجي ولا تضيفي هذه البينة القوية الى تلك

— لقد كلمتني ايها السيدة بحرّية تامة فلي انا ايضاً ان اكلمكِ كذلك . فقد كنت عازمةً على صيانة هذه الورقة واخفائها حتى عن نفسي . ولكن منذ ساعةٍ تغيرَّت الاحوال

— ارجو ان تعودي الى —

— لا . دعيني افتكر

ثم حال دون افتكارها دخول الخادم يقول لها سرًّا ان البارونة التدورف خارجاً تنتظر الدخول فامرتهُ بادخالها والتفتت الى الس وقالت : —

— ان احدى السيدات قادمة لزيارتي في وقتٍ معيَّن لها من قبل . وعلى افكارها

يتوقف امر تصرفي في هذه الورقة فادخلي هذه الغرفة التالية غير مأمورة وبعد ذهابها اطلعك على ما يكون

— تقولين انها قادرة على تقرير فكركِ افلا تدعيني اجتهد في استمالتها نحوي ؟ فعلى المرأة ان ترفق بنت جنسها

— ليس الآن بل بعد اجتماعي بها على انفراد

فدخلت السيدة ارلنفورد الغرفة الملاصقة وجلست املي وحدها تنظر الى الورقة وتخاطبها :—

— لست اعلم لمن يكون نصيب الحصول عليكِ ؟ فكلٌّ من ذينك الرجلين وهذه المرأة التي كانت الآن هنا يبذل في طريق نيلكِ مالاً جزيلاً . والشيطانة الجميلة يهمها الحصول عليكِ اكثر من كل واحدٍ منهم . ترومين ايها البارونة التدورف ان اساعدكِ على رفع النقاب عن وجه ارلنفورد ولا تعلمين اني عازمة على بذل هذه المساعدة بملء الرضى والمسرة

ثم دخلت الشيطانة الجميلة فتقدمت املي لاستقبالها قائلةً :—

— بغاية المحافظة على الوقت ايها البارونة . حسناً فعلتِ ولا يخامركِ ريبٌ في اني اقدر ثقتكِ بي حق قدرها وسوف ابرهن ذلك

— لقد برهنتِ بكتمانك سرَّ تقلُّد غودارد قيادة الفرقة الطيارة حين قدومهِ الينا في مرقبنا السيامي قبلما برحنا الى نيس

— لكنني لم اعرف ذلك الاَّ بعد ما تركني ارلنفورد في باريس ورجع الى لندن

— وحسناً ارتأينا ان نحملكِ على الارتياب في صدق هذا اللورد قبلما نطلعكِ على سرٍّ عظيمٍ كهذا . فلا يخفى عليكِ اننا نحن النساء حينما نحبُّ —

— نعم . نعم . فهمت مرادكِ والآن تريدين ان اساعدكِ على اتمام شيءٍ آخر

— نعم وارجو اني استطيع الاعتماد عليكِ

— ساجتمع بكِ هذه الليلة الساعة التاسعة في منزل المستر بركز وسيرى غودارد انهُ لا يكون لهُ هناك مساعد نظير املي دشتون

— توقعت اولاً اني سوف اتعب كثيرًا في حملكِ على مساعدتنا لكنكِ تفضلتِ بقبول هذه المساعدة بملء الرضى على خلاف المنتظر ولستُ اسألكِ عن سبب ذلك . ولسوف ابرهن لكِ اني قادرةٌ هذه الخدمة قدرها . لان مرجع تبرئة غودارد اليكِ . ومعوَّل نجاحنا في نيلها عليكِ وسوف يسبب لكِ ذلك حزناً والماً وان سبب لنا فرحاً وابتهاجاً . لانكِ امرأة

وحيدة ليس لكِ شريك ولا معين على مجالدة هذه الخطوب . فارجو ان تثقي بانكِ في كل حين تستطيعين الاتكال على امرأة واحدةٍ تشاركك وتعضدك وان مست الحاجة تحميك وتلك المرأة هي التي تعرفينها باسم الشيطانة الجميلة .هذا و في اراكِ مضطربة كثيرًا فأشير عليكِ بأن تستريحي قليلاً وفي الساعة التاسعة أرسل اليكِ مركبتي

— شكرًا لك . ساكون مستعدة في الوقت المعين

— اظنكِ لاتزالين محافظة على الورقة التي اعطاكِ اياها ارلنفورد

— هذه هي

— هل تسمحين لي بالحصول عليها ؟

— عندي سيدة تنتظر انصرافك لكي تعيد التماس الحصول على الورقة لتمزقها

— سيدة ! من هي ؟

— الكونتس ارلنفورد

— يهمني جدًا ان اقابلها . فتفضلي بدعوتها الى هنا وعرّفي كلاً منا بالاخرى

— ولكني اخشى حضور هذه المقابلة

— ادعيها واعتذري عن الحضور واتركينا وحدنا فاكفيكِ مؤونة الحيرة في امركِ وارفع عنكِ ثقل الاهتمام باجابة طلبها

— باي اسمٍ ترومين ان تعرفي عندها ؟

— باسمي الخاص — البرنسس غالتزن

— ماذا !

— هذا هو اسمي الحقيقي . ولم يعرفهُ قبلكِ احد غير البرنس سكولوف . فذهبت املي وجاءت بالس وعرفتها بالاميرة غالتزن وتركتهما وحدهما وخرجت

الفصل الخامس والعشرون

انتقام ثلث نساء

ولما خرجت املي افتتحت البرنسس غالتزن الكلام قائلة : —

— اظن اننا كلتينا صديقتنا القائد غودارد . واقول لكِ اني سأحضر الاجتماع المزمع ان ينعقد هذه الليلة . ولا ريب في انهُ سيكون مشهداً مزعجاً لكِ . لكننا سنغنم فيهِ متعة الابتهاج بتبرئة صديقنا

— يسرني انكِ تعرفينهُ . وعندي ان غودارد عنوان كل فضلٍ وكرامةٍ . ولقد قُدِّر لي وا اسفاهُ أن اكون سبباً لاصابتهِ باعظم ضرر

— اراكِ تبالغين في ذلك

— نعم اني لم اتعمدهُ ولكن النتيجة واحدة . ومن الغريب اني صبرت على حمل مصيبتي هذا الوقت الطويل كلهُ ولم ارزح تحت ثقلها الاَّ في تلك الدقيقة كما تعلمين . وفيما كنت عازمة على التصريح بانني انا التي اعطتهُ الورقة أُرتج عليَّ وخانني الكلام وغبت عن الصواب . ولست بناسية ماعشت هول تلك الساعة . فقد كان في امكاني ان أُبرئ ساحة غودارد بكلمة . وقد بذلت في ذلك غاية جهدي فذهب اجتهادي كلهُ باطلاً

— عندي انهُ خيرٌ لكِ ايها السيدة ان لاتحضري هذا الاجتماع . ولكِ فيهِ اصدقاء ينوبون عنكِ ويكفونكِ تحمل آلامٍ مبرّحة

— لا بل يجب عليَّ الحضور لداعٍ لا يمكن غضُّ النظر عنهُ . وذلك ليس لاجل تبرئة صديقي القديم — اذ لهُ من ينوب عني في هذا الامر كما ذكرت — بل للمحاماة عمن لايجد محامياً ولا مدافعاً — عمن يكون وحيداً في حالة تحرك عواطفي لمساعدتهِ — وهو زوجي !

— وهل يمكنك الدفاع عنهُ ؟ فلم يبقَ زوجكِ لانكِ طالق

— انهُ ابو ابنتي . فايُّ طلاقٍ شرعيٍّ يمنع مساعدتي لهُ ؟ لعلكِ ترمينني بضعف القلب ولكن هذا ما أراهُ موافقاً لي ولستُ احول عما طبعتُ عليهِ من الشفقة والحنو

— لقد اخطأتِ مرادي ولعلكِ تدركينهُ اذا اخبرتك باني انا الشيطانة الجميلة

— الشيطانة الجميلة !

قالت السيدة ارلنفورد هذا بدهشة انهضتها على قدميها . فقالت البرنسس غالتزن : —

— هل راعكِ هذا ؟

— نعم راعني قليلاً لاني لم استعدَّ لمقابلة تلك — الشهيرة

— اذًا لو عرفتِ من انا لم تهتمي بمقابلتي

— نعم لو عرفتُ لابيتُ الاجتماع بحاملة هذا الاسم — الشيطانة الجميلة — مخافة ان يفضي بنا اجتماعنا الى مالا يرضينا كلتينا لاني لستُ في شيء من آرائك. ومع هذا كلهِ اعترف لكِ باني رأيتكِ تختلفين كثيرًا عما توقعتهُ فيكِ

— اشكر لك هذا الاستدراك اللطيف . فقد صرَّحتِ بانهُ لاشيء في ظواهري يسلبني حق نظر الناس اليَّ بعين الاحترام — ولستِ بمنكرةٍ صلاحكِ وشرف عواطفك ولكنكِ قليلة الرفق بينات جنسكِ . فلستُ ادري ماذا حملكِ على اساءة الظن في من لا تعرفين عنها شيئًا

— لا اعرف شيئًا ؟ — فقد سمعتُ —

— سمعتِ ؟ ولكن مرادي انكِ لم تعرفي وهذا يختلف عن السماع

— عفوًا ولكن لا تنسي أن تلومي نفسكِ على ما يحدثهُ اسمك من التأثير في آذان السامعين .فمن ليس لها زوج —

— ان كان احترام المرأة مقصورًا على كونها ذات بعلٍ فانا حرية باكبر نصيبٍ منهُ . وفي عزمي ان أُطلعكِ على قصةٍ تسركِ الى الغاية فارعيني سمعكِ

فاظهرت السيدة السعلامات الإصغاء واخذت البرنس غالتزن تقصُّ عليها ما يأتي: —

— " ان والدتي ماتت وانا بعد طفلة صغيرة . فعشت مع أبي في قصرنا في لادوكا لا ثالث لنا سوى فتاة صغيرة جُعلت خادمةً لي ولكني اتخذتها رفيقةً وصديقةً . ففي احد الايام خرجت بي للتنزُّه واطالت شقَّة المسير حتى ابتعدنا كثيرًا عن قصرنا وأوغلنا في الحراج المجاورة . وفيما نحن عازمتانِ على الرجوع سمعنا صوتًا بين الادغال انذرنا بوجود وحشٍ كبير مفترسٍ . ولم يلبث ان طلع علينا من الغاب دبٌ هائل . فلما رأيناهُ مقبلاً نحونا التصقنا احدانا بالاخرى واستحوذ علينا خوف لم يغادر فينا شيئًا من الرشاد . ولكن لحسن حظنا لم نُبطئ أن سمعنا صوت بندقية على مقربة منا . ورأينا الدبَّ مجندلاً بدمائهِ . ثم خرج من الغابة رجلٌ يهنئنا بالنجاة ويعتذر عما نالنا بسببهِ من الخوف والذعر . وسار في حمايتنا الى القصر فاكرم ابي ملقاهُ ولاسيما حينما بلغهُ انهُ من اسرةٍ كريمة ذات وجاهةٍ ومكانةٍ . وكان هذا الرجل انكليزيًّا وقد جاء روسيا للصيد . واذ كان نازلاً في جوارنا أخذ يتردد علينا يومًا بعد يوم حتى رأيتُ نفسي تعلَّقت بمحبتهِ . اما أخي الذي كان يكره هذا الانكليزي كرهًا

طبيعيًّا فكان قد تزوج تلك الفتاة — رفيقتي وصديقتي — وذهب بها الى بطرس برج حيث دُعي للانتظام في سلك الحرس السري . فلما اصبحنا وحدنا لم نكذّب أن اقتفينا مثال اخي فاقترنا سرًّا خوفًا من ابي الذي كان حريصًا جدًّا على شرف اصلهِ الغالتزي . وفي الشتاء انتقلنا جميعًا الى بطرس برج

" فلما رأى اخي ان هذا الانكليزي باقٍ معنا اوجس خوف العاقبة وعزم على طردهِ من بطرس برج واخذ ينتهز الفرصة لخاصمتهِ حتى سنحت لهُ أحد الامساء في النادي . فحدث بينهما خصام شديد فحقر اخي زوجي كثيرًا وامتهنهُ امتهانًا لا يصبر عليهِ أحطُّ الناسِ قدرًا وادناهم شرفًا ودعاهُ الى مبارزتهِ وضرب لهُ اجلاً لذلك . لكنَّ زوجي بعد خروجه من النادي سعى في ما اوجب القبض على اخي اذ لا يصعب في بلادنا الشقيَّة سلب الانسان حريتهُ بل حياتهُ لوقوع اقلّ تهمةٍ عليهِ !

" فتصوَّري — ما استطعتِ التصوُّر — شقاء حالي وكم سجمتُ من الدموع السخية عندما بلغني هذا النبأ المشؤوم ولاسيما إذ تحققتُ انَّ اخي أخذ بمكيدة زوجي ولم أعد انظرهُ فيما بعد لانهُ مات ! لأن المأخوذ في روسيا بذنبٍ سياسي وان لم تقم الادلة الكافية على جريمتهِ لا يتعذَّر اغتيالهُ بطريقةٍ أخرى . ومن ذلك العهد توجهت افكاري نحو غرضٍ واحدٍ — الانتقام

" اما زوجي فنُفي من روسيا وشاع ان اللصوص هاجموا مركبتهُ على التخوم فكسروها وقتلوهُ وحينئذٍ التمستُ لنفسي تسلية عن هذه المكاره وخضت بحر السياسة الطامي ووقفت على خدمة البرنس سكولوف باقي ايامي . وبالاختصار صرتُ " الشيطانة الجميلة " . وذلك ما حلَّق بهِ طائر شهرتي واوقع في قلوب الكثيرين خوفي وخشيتي . لكني والحق يشهد بقيت مع انهماكي بالسياسة منصرفة نحو اصطناع المعروف واغاثة الملهوف وتعزية الحزين وتفريج كرب المتضايقين . ولا تسألي كم من حياةٍ انتشلت من وهاد القنوط على يدي ووقيت الارتطام بصخور اليأس الابدي . وفي إبّان متاعبي واضطراباتي اجتمعتُ بالقائد غودارد . وقد سرني اني كُفيت تبعة الجناية ولم تُلطخ يداي بدم زوجي "

فلما فرغت من حديثها نهضت السيدة ارلنفورد وقالت بلسان السآمة والضجر : —

— أراكِ اكرهتني على الاصغاء الى حديث لا يهمني البتة ولكنهُ مكدِّر لك فقط

— ستعدلين عما قليلٍ عن هذا الرأي . فقد اتخذت هذه الحادثة مثالاً يناسب موضوع بحثنا وشاهدًا على قولي انهُ خيرٌ لكِ ان لا يكون لتعلُّق المرأة بزوجٍ دخلٌ في احترام الناس

لها لانك لم تكوني قطُّ ذات بعل ! بل انت لتكد الطالع أمَّ ولدٍ بزواجٍ غير شرعيّ !

— انا ! كيف تجسرين —

— اسمعي فأُخبركِ كيف أجسر . ان الرجل الذي سبَّب قتل اخي وقرينتهِ الحامل — الرجل الذي اتصيَّدهُ من مكان الى آخر تصيد الضواري الجائعة باقٍ حيًّا ! هو الرجل الذي تظنينهُ زوجك وهو بالحقيقة زوجي !

— ويلاهُ ! كذب ! لا يمكن ان يكون صحيحًا !

— اعلمي ان الرجل الذي جرَّدني من اسمي وشرفي ومكانتي واكسبني شهرةً ينقبض مني لاجلها سيداتُ نظيرك و يعرضن عني بوجوهٍ بامرةٍ لا يبرح حيًّا وهو اللورد ارلنفورد المدعو قبلاً جون فاين

— انكِ تقولين هذا تشفيًا وانتقامًا لاني غظتك بكلامي مع اني لم اتعمَّد ذلك . فاجثو الآن امامك واتضرَّع اليكِ ملتمسةً الوقوف على الحقيقة . فهل تقسمين لي ان ماتقولينهُ صحيح ؟

— أُقسم لكِ انهُ صحيح وسأُبينهُ بالادلة الكافية

ثم دخلت املي دشتون فوجدت السيدة ارلنفورد مغشيًّا عليها عند قدمي البرنس غالتزن وبعد نصف ساعة رجعت البرنس غالتزن الى منزلها فوجدت البرنس سكولوف جالسًا ينتظر قدومها بفروغ صبرٍ فلما رآها نهض لاستقبالها وقال : —

— قد جئت لاطلاعك على عراقيل جديدة عرضت لنا ولم يبلغك خبرها بعد — ما هي ؟

— ان مقام اللورد ارلنفورد تغيَّر من حيث علاقتهُ بزوجتهِ تغيُّرًا مهمًّا — لا اظن

— بلغني ان الس راغبة في ان تنسى الماضي وتعفو عما حدث وترجع الى زوجها

فاجابتهُ باسمةً : —

— لست مصيبًا ايها البرنس فيما نقلتهُ فالسيدة الس لاتروم ان تنسى وتعفو وليست في شيءٍ من عزم الرجوع الى زوجها لانها لم تكن قط طالقًا

فاوجس البرنس خوف اختلالٍ في قوى البرنس العقلية لكنهُ كتم اهتمامهُ بهذا الامر وقال لها بكل بساطةٍ : —

— لستُ افهم مرادكِ . أراكِ تتكلمين بالالغاز . — وتودُّ لها حلاًّ وتوضيحًا

— ممن اقف على ذلك ؟ — من السيدة ارلنفورد نفسها

— اودُّ الاجتماع بها فهل تظنينها تروم مقابلتي ؟

— لاريب في انها تسرُّ بمقابلتك كل السرور

— واين هي الآن ؟ هل لكِ ان تخبريني ؟ — هنا

— هنا ! اين ؟ — في هذه الغرفة امامك

— ناشدتك الله قولي لي ماذا ماذا تعنين بهذا ؟ — اعني اني انا هي

قالت هذا بكل بساطةٍ واستوت على كرسي مقابلهُ . فمرَّت عليهما بضع دقائق لم ينفوها فيها بينت شفة . ثم وثب البرنس على قدميهِ وصرخ : —

— فهمت ! الآن فهمت ! تزوجت هذا الرجل في روسيا اليس كذلك ؟ — بلى

— وهذا الخبيث تمكَّن من الوصول الى خزانتك وسرق كتابي — نعم

— هل يعلم بهذا أحد ؟

— نعم فقد قابلت المرأة التي ادَّعى زواجها (السن) اليوم بعد الظهر واطلعتها على كل شيء لانهُ حان الوقت

— وماذا أصابها عند اطلاعها على هذا الخبر ؟ — كما نتوقَّع

— وعلى مَ عزمتِ الآن ؟

— انَّ هذا آخر ما عندي لحمل ارلنفورد على الإقرار بما جناهُ على غودارد وبعد إقرارهِ وتبرئة القائد المذكور لا يصعب عليَّ الغاء زواجنا لأنَّ طول المدة وعروض تلك الحوادث — هذا كلهُ يمكنني من التخلُّص منهُ . اما انت فلستَ في حاجةٍ الى مساعدٍ على تنفيذ قوتك وادراك مرادك

— وبعد هذا ؟

فتورَّدت البرنسس واطرقت لا تبدي جواباً فقال : —

— لا بأس . فقد وعدتكِ اني اهتمُّ بما فيهِ سعادتك مؤثرًا هذا على الاهتمام بسعادة نفسي . وسوف ازيدكِ على هذا الامر برهاناً بعد برهان ما شاء الله من الزمان . ففي الساعة التاسعة نجتمع في منزل المستر بركز ولا بدَّ ان ارلنفورد يحاول بوقاحتهِ المعهودة الافلات من الاشراك التي نصبناها حولهُ . ولهذا ساذهب مسلَّحاً بافعل الوسائط واقوى الوسائل التي لنا في البوليس السري

— وهل تستطيع ذلك ؟ — هنا في انكلترا ؟

— أنسيت ان جون فاين كان لتكدالحظ عضواً في الفرقة الثالثة ؟

— أنسيتَ أني لن أنسى هذا مدى العمر ؟

— إعلمي إذاً انهُ مع عدم وجود معاهدة رسمية بين الحكومتين في تسليم المذنبين فيد

جلالة القيصر تستطيع القبض على عبيدهِ اين كانوا . أتركي هذه المسألة لي

— بمزيد الرضى والسرور . فاذاً الى المساء — عن قريب

وفي الساعة الثامنة جلس المستر سنسناتوس بركز في مكتبتهِ يكتب رسالةً . وبعد ما فرغ القى يراعهُ من يدهِ وقوَّم ظهرهُ على كرسيهِ ورفع الرسالة بيدهِ وقال في نفسهِ بعدما اكمل تلاوتها : —

— هذا يكفي

وهذا تعريب رسالتهِ :—

" سيدي المستر سافيل

" يسوءني ان اخبرك ان اللورد ارلنفورد يأبى انتهاز فرصة الفرار من الجلسة المراد عقدها هذه الليلة في بيتي . وقد عزم ان يشهدها متحوِّطاً ومعداً لها امضى اسلحة الدفاع . فان لم تكن اسلحتك امضى من اسلحتهِ تمكنت ابنة عمي — الفتاة الغبية الطائشة — من الحصول على ما يورثها الخراب والدمار ويوردها موارد التلف والبوار . ولا يغرب عنك انهُ وغد وقد بلغ غاية النذالة والدناءة وافرغ جعبة احتيالهِ في اجتذابها اليهِ معللاً نفسهُ بالتعويل عليها وتحويل كل اذيةٍ اليها وقد عجَّلتُ في اطلاعك على هذا لكي تكون على بصيرةٍ وتأتي الجلسة متأهِّباً للحمل عليهِ التأهُّب التام . وفي اقرب وقتٍ اتوقَّع زيارتهُ لي والسلام — صديقك المخلص

سنسناتوس بركز "

ثم طواها وعنونها باسم دك سافيل ودفعها الى الخادم وامرهُ بسرعة ايصالها الى صاحبها . ورجع يفتِّش اوراقهُ قائلاً : —

— اين وضعت كتاب تلك الفتاة الشقية؟

ولما وجدهُ فتحهُ وقرأ فيهِ ما تعريبهُ : —

" ابن عمي العزيز

" لا انكر فضلك العميم . لكني بلغت من العمر ما يمكنني من العناية بنفسي . ولو رضيتك وصياً او قيماً عليَّ لكنت اقترنت بك من سنين طويلة . ويسوءني القول اني لا اقدر ان ارثي لحالة السيدة التي كانت زوجة اللورد ارلنفورد . ويجب ان افضل العمل باشارة زوجها على اجابة التماسها والسلام "

— يالك من فتاةٍ شقيةٍ وجاهلةٍ غبيةٍ . ألا تعلمين اني لاجلك اتيتُ اوربا والاَّ كنتِ طوَّحتِ بنفسك الى دركات الشقاء والدمار . وأخذتِ بخداع هذا الكاذب العيَّار . وانت

يا سيدي ارلنفورد اظنك بلغت غاية شوطك وقد أعددت لك شركاً لا تقوى على الافلات منهُ . واني لأشكرك بل اشكر العناية التي قدرت لي ان أشاهد بداءة ونهاية أغرب حادثة جرت في لندن

واذ ذاك دخل الخادم يعلن قدوم دك سافيل فقال بركز : —

— اهلاً بالمستر سافيل . أراك جئت قبل الوقت . اذاً لم يصلك كتابي

— لم أرَ منك كتاباً . وقد جئت لاقف على مجرى الاحوال . واحضرت صورة الإقرار المطلوب من ارلنفورد توقيعهُ وهو في نسختين هاتان هما

فاخذهما بركز ونظر فيهما نظرة المتفحص وقال : —

— هل يكتفي غودارد باقرار كهذا ؟

— نعم يكتفي ان يوقع ارلنفورد هذا الاقرار ويبرح انكلترا في الحال

— وهل تظنهُ يفعل هذا ؟ — لا اعلم

— وعدني انهُ يكون هنا الساعة التاسعة . ولما نصحتهُ بالعدول عن طلب التزوج بابنة عمي وانذرتهُ بسوء العاقبة أبى قبول النصح ولم يبالِ بالانذار. فعسى البارونة الندروف أن تحقق ما قالتهُ لي من جهة حصولها على قوة كافية لردعهِ . واقول لك ان محاولة كبح جماحهِ وترويضهِ ليست من الهنات الهينات

— ويسرني جداً انك تخلصت منهُ على رغم تعلق ابنة عمك بهِ

— كيف ؟ وهل تخلصنا منهُ ؟

— نعم فانهُ بعد الحادثة التي طرأت لم يعد يهمهُ الاقتران بها

— اية حادثة تعني ؟

— حادثة حصولهِ على ثمانية آلاف جنيه في السنة ! فهل دار في خلدك ان شرَّ خلق الله يفوز بحبة افضل النساء ؟ ان السر تروم الان الرجوع اليهِ وقد رضيت ان تعطيهُ ثمانية آلاف جنيه في السنة . وهي مستعدة لترك انكلترا معهُ

— متى تصل البارونة — الشيطانة الجميلة ؟

— في الوقت المطلوب . ان هذه المرأة سرٌّ غريب وقوتها فائقة الادراك . ولسوف تكون ليلتنا هذه ليلة شديدة الاهوال . وسأذهب الآن للتفتيش عن امرأتي وبعد ربع ساعة اعود

وبعد خروجهِ دخل الخادم واعلن قدوم اخي املي دشتون فاخذت بركز الحيرة والانقباض وقال : —

— كرتر؟ الماجور هومر كرتر؟ اني اعرف الاسم بعض المعرفة واما مسماهُ فلا اذكرهُ فقال لهُ الخادم : —

— يقول صاحب هذا الاسم انهُ يروم مقابلتك دقيقة واحدة

— قل لهُ يدخل

فدخل الماجور كرتر وقال : —

— اجتمعنا مرة في بيت اللورد ارلنفورد

— تذكرت الآن . فماذا تروم مني ؟

— ارسلني اللورد ارلنفورد لاخبرك بانهُ لا يستطيع الحضور في الوقت المعيَّن

— هكذا توقَّعت واظنُّهُ —

— عرض لهُ امرٌ لم يكن في الحسبان فجئتك معتذرًا عنهُ لئلاَّ تغتاظ من تأخرهِ في المجيء . ويسرني أن انتهز هذه الفرصة للبحث قليلاً في الحوادث الجارية المكدِّرة . فان السيدة ارلنفورد عزمت ان تعرض على زوجها شيئًا وقد نصحت لهُ ان يقبلهُ

— وهل يهمني اقتراحها هذا ؟

— الى الغاية لانهُ اذا تمَّ عدل ارلنفورد عن الاقتران بابنة عمك

— سمعت شيئًا من هذا منذ بضع دقائق . واظنك لا تجهل ان حرية ارلنفورد الشخصية تتوقف على الاجتماع الذي ينعقد هذه الليلة

— حريتهُ ؟

— في هذا الاجتماع يطلب منهُ الاقرار باشتراكهِ في المكيدة التي سببت خراب القائد غودارد . فاذا ابى الاقرار واصرَّ على الانكار اثبتنا الجرم عليهِ وعلى كل شريك لهُ في جنايتهِ

— اني على رغم صداقتي لارلنفورد مضطرٌّ الى الاعتراف بشدة كدري من اشتراكهِ في تلك الحادثة المحزنة

— هكذا توقعت . وهذا ما جرَّأني ان التمس منك شيئًا بهذا المعنى . فاذا اردنا الاعتماد على شهادتك تعجيلاً لقضاء الامر فكم تطلب عليها ؟

— خمسماية جنيه

— ستحصل على هذا المبلغ بعد نهاية الاجتماع . واذا شئت فاذهب الآن وارجع بعد نصف ساعةٍ

— سمعًا وطاعة

الفصل السادس والعشرون

حصد الزوبعة

وبعد خروجهِ دخل دك سافيل وزوجتهُ فقالت هذه للمستر بركز بعد التحية : —

— لقد حاول دك ان يمنعني عن الحضور كأنهُ لا يشاء ان اشاهد تبرئة صديقي القديم غودارد . لقد مضى وقت طويل منذ اجتمعنا آخر ليلة وحضرنا تمثيل تلك الحادثة المشومة . لم يكن في حسباني انها تختم بذلك المنظر الصادع واظنك سمعت بمرض السيدة اس الطويل الشديد

— نعم ولكن لم اقف على تفاصيل ذلك

— اعلم انها بعد ما ابلّت وصحت من تلك السكرة لم تلم احدًا غير نفسها وقد الحّ عليها اهلها في تطليق زوجها فلم يسعها مخالفتهم . لكنها اسرّت اليّ بعد ذلك انها تنتهز فرصة عرض رجوعها اليهِ

— ولكن لماذا ؟

— لاجل ولدها . فما اشدّ بلادة وغباوة النساء الصالحات ! ولما اطلعتني على قصدها هذا لم يعد يسعني الصبر عليها وكدت ادخل معها في خصام طويل عريض . والآن حين بلغها دك عزمهُ على السعي في تبرئة ساحة غودارد استأذنت في حضور الاجتماع لتحامي عن زوجها وتمهّد لهُ سبيل الرجوع اليها ! فأخلق بها ان تكون ملاكاً —

فاعترضها زوجها قائلاً : —

— اي عزيزتي كتي . خلّي عنا الآن إطالة الكلام في اظهار مؤاساتك لها ودعينا نغتنم هذه الفرصة للكلام في ما هو اهم من هذا

— الا تجيز لي ان افوه بكلمة واحدة بلا اعتراض ؟ فالمستر بركز صديقي القديم . نعم اننا لم نجتمع معًا سوى مرة واحدة ولكن — لا بأس . مالنا ولهذا . اعلم يا مستر بركز انني في قدومي الى هنا اخذت رسالة قصيرة من السيدة ارلنفورد تقول فيها : —

"بعد ظهر اليوم وقفت على خبر جديد اوشكت من جرّائهِ ان ابيت بلا شعور على الاطلاق وسأطلعكِ عليهِ فيما بعد . اما الآن فمن الضروري جدًّا ان اقابل المدعوة الشيطانة الجميلة على انفراد . إذًا حينما نجتمع معًا هذه الليلة تحمّلي لكِ عذرًا واتركينا وحدنا بضع دقائق . اتلي هذه الاسطر على المستر بركز واسأليهِ ان يسعى في اتمام ما طلبت"

ثم القت الرسالة على المكتبة واذ حانت منها التفاتة الى اوراقٍ منثورة عليها ابصرت بينها

غدارة مسدسة الطلقات فرفعتها بيدها وقالت :

— ما هذه يا مستر بركر ؟

— احذري ! احذري ! انها محشوة ورصاصها على صغر حجمهِ يشوي شيئًا ولو على بعدٍ

فأجفلت من هذا الانذار وما كذَّبت ان ارجعتها الى مكانها واستأنفت كلامها معهُ : —

— ما رأيك في هذه الرسالة ؟

— لا اعلم . وعلى كلٍّ ارى التمامها بسيطًا . وبعد بضع دقائق تكون هي والبارونة هنا فننظر في الامر

ثم أعلن قدوم السيدة الس فنهض المستر بركر لاستقبالها وقال لها بعد التحية : —

— الم تنتظري القائد غودارد بعد ؟

— كلاَّ وقد توقعت ان اراهُ هنا . آه كم أراكِ سعيدةً يا كتي و يسرني ذلك جدًّا . هل وقفتِ على رسالتي ؟

— نعم لكني لم افهم فحواها . فهل نظرتِ البارونة التدورف ؟

— نعم — اتفاقًا — بعد الظهر ومنها وقفت على الحقيقة

— الحقيقة ؟

— نعم فقد اخبرتني عن نفسها من هي ومن كانت

— من هي ؟ وما هي ؟

قال هذا دك و كتي معًا . فقالت ألس : —

— ألا تعلمان من هي ؟ — كلاَّ

— البرنسس غالتزن

وهاتانِ الكلمتانِ نطق بهما اتفاقًا خادمٌ دخل وفتح مصراعي الباب وادخل الشيطانة الجميلة فاعتراهم دهشة من رؤيتها ونهض المستر بركر لملاقاتها ومهَّد لالس سبيل الاجتماع بها على انفراد

فلما خلتا احداهما بالاخرى نهضت الس وقالت للشيطانة الجميلة : —

— اتسمحين لي ان اقبِّل يدك ؟ لاني لست بمستحقةٍ بعد استماع قصتكِ أن المسكِ ولا بدَّ ان اكون قد غظتكِ جدًّا بجهالتي فهل لكِ ان تسامحيني ؟

— ليتني اقدر ان ازيل عنكِ ثقل كربكِ كما اقدر أن اسامحك — إن صحَّ وجود ما يستدعي مسامحتي لكِ — فكنت افعل ذلك الوفا من المرات . وصدقيني انني باطلاعي على

مصيبتكِ نسيت مصيبتي . فكم اودُّ لو كنت قادرة ان اساعدكِ ! وكم اتمنى لو اني اقوى على ايضاح حقيقة اشتراكي في احزانكِ

— نقدرين ان توضحي ذلك — ان اردتِ — بل تستطيعين ان تمحيني كل ما اريدهُ من الراحة والسلام في حياتي المحزنة . افلا تجيبين سؤل قلبي ؟

— ماذا ترومين ؟

— ان تعطي جاك — لورد ارلنفورد — فرصة لتبرئة نفسهِ من التهم التي تظنينهُ مأخوذًا بها . . اني عالمة انهُ سوف يبذل جهدهُ في اصلاح ما اساء بهِ الى اوبين . وسوف ينسى اوبين الماضي لاجلي . افلا تفعلين نظيرهُ ولكِ — ان اردتِ — قدرة على الغاء قرانكِ بهِ بـ — زوجي بلا مانع . اليس كذلك

— بلى ولكن لِمَ تطلبين هذا ؟

— لاني اروم الاخذ بيدهِ حتى يكفر عن الماضي وان اعتقتهِ ومنحتهِ الحرية فانا مستعدة ان اقبلهُ زوجًا لي . لي منهُ بنت صغيرة ومن اكبر واجباتي بذل جهدي في ارجاع ابيها اليها

— وهل يمكنك ان تعيشي مع هذا الرجل المستحق كل خذلان واحتقار لانكِ ترين ذلك من واجباتك ؟

— نعم ! لان هذا آخر ما استطيعهُ لكي اعوض بنتي ما المَّ بها من الأذى والاَّ فلا اقدر في المستقبل ان ارفع نظري اليها حينما تسألني عن ابيها . فهل تجيبين سؤلي ؟

— اكرامًا لكِ اعدكِ اني اصفح عما جناهُ عليَّ واما عن جنايتهِ على اوبين غودارد فلا اقدر — ولا أُريد . فحريتهُ اذًا لم تبقَ متوقفة عليَّ بل على اقرارهِ هذه الليلة . فمرجع نصيبهِ اليهِ ومعوَّل مستقبلهِ عليهِ

— جزاكِ الله عني خير الجزاء

واذ ذاك دخل المستر بركز وقال لهما : —

— جاء القائد اوبين فهل ادخل بهِ الى هنا ؟

فاجابتهُ الس : —

— تمهَّل عليَّ دقيقة واحدة . اني خائرة القوى وليس في استطاعتي تحمل شيء بعد . فهل تأذن لي يامستر بركز ان استريح قليلاً في غرفة اخرى قبل انطلاقي ؟

— نعم تعالي ادخلي هذه الغرفة ريثما تأتي مركبتكِ فاخبركِ . ولما خرجت مع بركز قالت الشيطانة في نفسها :

— لايجسر احدٌ ان يقول ان هذه المرأة مخطئة — حتى انا التي نسيتْ بسببها ماحلت بهِ مؤخرًا من دنو ساعة التشفي واقتراب وقت الانتقام

ثم ضغطت رأسها بيديها والتفتت نحو الباب فاذا بفودارد مقبل فقال مخاطبًا اياها

— عليَّ ان اشكر لكِ كل مساعيكِ الحميدة المبذولة في سبيل استرجاع شرفي بل استرداد حياتي

— اني اشتم من كلامك هذا رائحة التوبيخ ولكن ألم ابذل جهدي في عمل ما استطعتهُ تكفيرًا عن اشتراكي في ما ألمَّ بك من المكاره ؟ ثم انَّ عاقتك في دوه كوي نشأت عمَّا كنتَ فيهِ من البحران العميق لا عن البرنس سكولوف فلما صحوت كنتَ حرًّا طليقًا تذهب من حيث أتيت

— حقًّا ان هذا الرجل عجيب . فكيف لم يقتلني بعد ما قبض عليَّ مع انَّهُ لو فعل ذلك لكان قتل طائرين بحجرٍ واحدٍ — بل بالحري رجلين برصاصة واحدة . ولا بُدَّ ان المشهد كان في ذلك المساء مخيفًا ولا تبرح صورتهُ من ذهني

— انهُ من اعظم بواعث خجلي . فحينما عرفك البرنس ووجدتُ ان احتيالي عليهِ لاجل نجاتك لم يجدِ فتيلاً استولى عليَّ اليأس فتقدمت اليهِ طالبة ان افتدي منهُ حياتك وقلتُ لهُ "دعهُ ينجو واعدك اني لا انظرهُ ما عشتُ وانا نفسي أُعطى لك عوضًا عنهُ ! "

— يا لله ! وماذا اجابكِ ؟

— اجابني بكل بساطةٍ . " اني احببتكِ منذ ما عرفتكِ ولم تدركي كنه هذه المحبة . فارجو اني اقدر يومًا على اقناعكِ باني محبٌّ قانطٌ — ورجل حليف المروءة والانسانية "وهذا كل ما قالهُ لي . وبعد ما نقهتَ جلسنا نأتمر على إخفاء الاشراك لارلنفورد . ولست اخجل اني جثوت على ركبتيَّ امامهُ والتمستُ عفوهُ . وبواسطة مساعيهِ ومشوراتهِ أُخفي خبر امرك وما يتعلَّق بهِ عن الجنرال سكوبيلف

— يا لهُ ندبًا فاضلاً !

— ومن حسن طالعك ان جرحك كان بالغًا ولم يشفَ الاَّ بعد انتهاء الحرب

فرفع اوبين يدها وادناها من شفتيهِ وقال بصوتٍ شفَّ عن اعمق عواطف قلبهِ واباح مكنونات حبهِ : !

— وقد كابدتِ هذا كلَّهُ لاجلي ! فيا عجبا ! ولماذا ؟

فتبسمت عن انقى من اللآل . وامالت منها جيد الغزال . وقالت مداعبة شأن ربَّات

الحجال في مثل تلك الحال : —

— لانك كريهٌ في ذوقي . لاني لا احبك . لاننا مطبوعان على بغض احدنا الآخر . افليست هذه اسباباً كافية يا اوبين ؟

وحينئذٍ اصبح هذا الرجل في الحال انساناً ولم يعد البطل اوبين غودارد فضمَّ الى صدرهِ تلك التي باتت ايضاً امرأةً ولم تعد الشيطانة الجميلة فالقت نفسها بين ذراعيهِ واستسلمت بفرط الوجد اليهِ

وعفتُهُ عنهُ تروم ابتعادها وقوة نارِ الشوق منهُ لها تُدني
فقبَّلها والوجدُ عنها مترجمٌ بعيشك زدني منهُ يا منيتي زدني

ولو لا قليل كان بركز رآها إذ دخل الغرفة فجأةً وقال : —

— جاء اللورد ارلنفورد ايتها البرنسس فهل يدخل ؟

— تمهَّل قليلاً . واعلم اني بسبب الحاح الس الشديد حلتُ عن عزمي ووعدتها المساعدة . ولهذا لا ارى من حاجة اليَّ ان كان يوقّع الاقرار . وعندي انهُ لا يعلم اني وجدتهُ . فدعني اذاً ادخل هذه الغرفة ومنها اقدر ان اسمع ما يقول

— كما تريدين

ثم ادخلها الى غرفةٍ صغيرة ملاصقة القاعة ومتصلة بها من شباك كبير بينهما يغطيهِ ستار صفيق . وعلى اثر خروجها من القاعة دخل دك سافيل يصحبهُ اللورد ارلنفورد والماجور كرتر . وبعد ما جلسوا جميعهم افتتح المستر بركز الكلام فقال : —

— ليس فينا من يجهل الغاية التي اجتمعنا لاجلها . فاسمحوا لي ان اتلو عليكم صورة الاقرار التي يطلب من اللورد ارلنفورد توقيعها وهي :

"انا جون فاين فيكونت ارلنفورد أقرُّ بان ما اتهمت بهِ الشريف القائد اوبين غودارد كان كذباً مختلقاً لا حقيقة لهُ . وقد تعمَّدت هذه التهمة تعمُّداً — مع علمي ببطلانها — متخذاً اياها ذريعة لنيل غرضٍ ادركتهُ بواسطة نجاح تهمتي هذه واخفاق سعيهِ في رسالتهِ التي كان مزمعاً ان ينطلق بها ليلتئذٍ" . فان وقَّعت ايها اللورد هذا الاقرار بشهادة الحضور وضعت حدّاً لهذا الاجتماع المكدّر

فنهض ارلنفورد على قدميهِ وصاح : —

— اوقّع هذا الاقرار ! اني ارفض ذلك كل الرفض . وانما اقول اني ارتكبت خطأً ليس الاَّ

فقال دك سافيل

— انت مخيرٌ ايها اللورد

— نعم وليس في الارض من قوة تضطرني ان أفعل اكثر من هذا

— لعلي استطيع ان أقنعهُ بوجوب توقيع هذا الاقرار !

قالت هذا الشيطانة الجميلة واندفعت من وراء الستار من خلف ارلنفورد الى داخل القاعة. فلما سمعها التفت واذ رآها أجفل اجفال الجمل وصاح مذعورًا : —

— كاريتا غالتزن ! بالله !

فاجابتهُ هازئة : —

— نعم ولسوء الحظ زوجتك

فدهش جميع الحضور وصرخوا بصوتٍ واحدٍ : —

— زوجتهُ !

فتغلب ارلنفورد على انفعالهِ وتكلف الثبات وقال متهكمًا : —

— يصعب عليكِ ان تبرهني شرعية زواجنا بالطريقة التي اتبعناها حتى في روسيا . واظنكِ اعقل من ان تعرضي نفسك لتبعة شيوع كونكِ حظيتي

— فشبَّ كلامهُ هذا نار الغيظ في فؤاد غودارد وتحفز للايقاع بهِ لو لم يعارضهُ سافيل وتحل البرنسس بينهما . اما هي فاجابتهُ بمزيد الازدراء : —

— لعل عيبي الوحيد اني كنت لنكد الطالع زوجتك . ولكن على رغم رواغك لست بمستطيعٍ الافلات من يدي . فاعلم ان مرجع الافراج عنك اليَّ . ومعوَّل نيلك الحرية عليَّ وفي يدي زمام حياتك لانها لي ولا اتكلف في تقرير نصيبك سوى اشارة صغيرة باصبعي . اذًا توقع هذا الاقرار حالاً ؟

— نحن الآن في انكلترا لا في روسيا . ولهذا ارفض التوقيع فافعلي ما شئتِ

— رأيتُ مركبة البرنس سكولوف في الدار اسفل فتفضَّل ايها المستر بركز بدعوتهِ الى هنا نخرج بركز يدعوهُ ولما دخل بهِ قالت لهُ : —

— اتريد ايها البرنس ان تخبر ارلنفورد بأننا نقدر عندما تمس الحاجة ان نثبت للعيان جريمة إضرارهِ وانَّ خوف اشتهار هذا الامر لا يقعدنا عن السعي في إحباط مساعيهِ وتخييب امانيهِ

فقال ارلنفورد ساخرًا : —

— انكما كاجنبيين يترتب عليكما مراعاة معاهدات مخصوصة لا تمكنكما من نيل مأربكما

فاجابهُ البرنس بكل رصانةٍ : —

— ولكن ليعلم اللورد ارلنفورد أنَّ المعاهدات بين دولتينا مكنتني من تحصيل امر القبض عليك وسوقك الى بطرس برج لا الى لندن لتحاكم على جريمةٍ ارتكبتها

— واية جريمةٍ — جريمة القتل

— انك لاقصر من أن تقوى على اتهام انسانٍ بشيءٍ يجهلهُ او تقول لي من قتلت

— ذلك كلهُ تجدهُ موضحاً في هذه البراءة

ثم دفع اليهِ صكاً واستطرد كلامهُ : —

— هذا فضلاً عن ان اقامتك الطويلة في روسيا واطلاعك المدقق على احكامها وشرائعها وعلاقتك الشديدة ببوليسها تقنعك بانا نفعل ما لنا حقٌ فيهِ ولا نقدم على اجرائهِ اعتباطاً ولا نكيل القول فيهِ جزافاً

— ولكنَّ اقدامك على هذا يقتضي نفقة باهظة يصعب عليك تحملها . —

هوذا ضباطي اسفل واظنك تمثل الامر بالذهاب معهم بلا تردُّد وسأكتب اليهم بعض كلمات في هذا الشأن

ثم جلس يكتب وكان ارلنفورد واقفاً يقلِّب نظرهُ في ذلك الصك بما لا مزيد عليهِ من الحيرة والدهشة . واذ ذاك دخل الخادم والقى رقعة بين يدي المستر بركر واسرَّ الى البرنس غالتزن كلاماً فخرجت على الاثر ودنا دك سافيل من البرنس سكولوف وقال لهُ :

— أرى هذه الشكوى هائلة جداً وقد جاءت على غير انتظار

— لا يخفى عليك ان الادواء الحادَّة تتطلَّب ادوية احدَّ منها

— وهل تقوى على اثبات جريمتهِ ؟

— لستُ في حاجة الى ذلك لأنَّ اللورد ارلنفورد يؤثر توقيع الإقرار في هذه الجلسة على الرجوع الى روسيا واظنك فهمت مرادي

وبعد ما فرغ اللورد ارلنفورد من مطالعة الصك سار نحو الباب ووقف ملتفتاً الى الحضور غير منتبهٍ الى دخول البرنس غالتزن والسيدة املي دشتون من ورائهِ وقال بلهجة المدافع الجسور : —

— مهما يكن من امر تحاملكم عليَّ فلست بمعرِّض نفسي لخطر مقاومتكم وقد قدَّر لي حسن الطالع مخارج انجو بها بمساعي زوجتي وبالطرق التي نهجتها حديثاً . على انهُ باقٍ في زوايا هذه الحادثة امرٌ اكتنفهُ الغموض والخفاء ولم يبقَ فيهِ اثر للوضوح والجلاء . وهو الورقة التي اخفاها القائد غودارد "روّا السباتي" فان فقدها كان امراً غريباً

فنادتهُ البرنسس غالتزن من ورائهِ : —

— لا حاجة للاستغراب فهذه هي !

ثم وضعتها على المائدة وتقدم الجميع مزدحمين لمشاهدتها واستطردت البرنسس كلامها : —

— فانتم ترون ان هذه الورقة مرقوم على ظهرها علامة مقمرٍ كان اللورد ارلنفورد يتردَّد اليهِ . وقد اعطاها في تلك الليلة للسيدة املي لتمزقها لكنها لحسن الحظ لم تجب طلبهُ . اما الورقة الاخرى — ذات النقطتين — (الجويزة) — التي اخفاها القائد غودارد فسيؤتى بها عند الطلب

فقال اللورد ارلنفورد لاملي التي كانت متكئة على المكتبة مقابلهُ : —

— عليكِ ان تذكري بالتفصيل كيف حصلتِ على هذه الورقة

— انني مستعدة لذلك تمام الاستعداد . ولكن قل لي أرأيت الآن صبح ليلتك ومساءها وعلمتَ ان وراء الاكمة ما وراءها ؟ اما انذرتك بعد ظهر اليوم أن —

— اتم عدة امور ومن جملتها أن اتزوَّجكِ

— كلاَّ بل قلتُ لك انك لا تتزوج غيري

— وقد قلتُ لكِ ان الانسان لا يتزوج حظ —

— صه :

قالت هذا بصوتٍ ارعدتْ بهِ إرعادًا وقامت عيناها بأمِّ رأسها تنقدان النقادًا ثم لاحت منها التفاتة الى الغدارة الملقاة تحت يدها فاخذتها باسرع من وميض البرق واطلقتها عليهِ فجندلتهُ وسقطت هي مغشيًّا عليها

ثم فتح الباب في الحال ودخلت السيدة ارلنفورد مسرعة الى حيث كان زوجها مطروحًا في حالة النزع فعطفت عليهِ وصاحت : —

— ويلاه ! جاك ! ماذا اصابك ؟

فرفع رأسهُ بجهدٍ عنيفٍ واشار يسترعي اصغاء الجميع ثم قال يخاطب امرأتهُ بصوت النازع المشرف على الموت : —

— انا — انا قتلتُ نفسي . مسكينة انتِ ايها المرأة ! لقد تخلصتِ مني !

وما اتم هذه الكلمات حتى سقط بين ذراعيها ومات

(انتهت)

Suleiman A - Izzeddin

DATE DUE

SAFETY LIB.
1988

818:D339bA:c.1
داغر ،اسعد خليل
روايةَ البوليس السري
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01030504

818
D339bA